BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ISSN 3283-2636

علوم المخطوط

دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد السادس
٢٠٢٣

مركز المخطوطات
Manuscripts Center

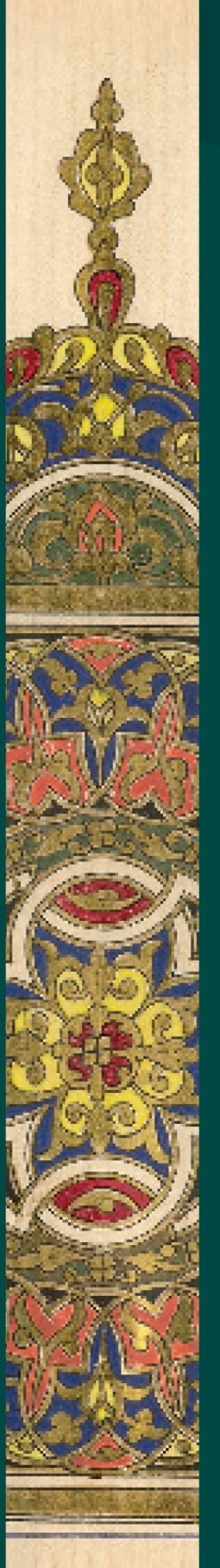

دورية علمية سنوية محكَّمة

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. أحمد عبد الله زايد

المشرف العام
د. محمد سليمان

رئيس التحرير
د. مدحت عيسى

هيئة التحرير
د. حسين سليمان
ليلى خوجة

مراجعة اللغة الإنجليزية
وجدان حسين

فريق عمل إدارة النشر

الإشراف الفني
ومراجعة التنسيق
مروة عادل

التدقيق اللغوي
د. محمد حسن
شيماء علوان
آلاء شلتوت

معالجة النصوص
صفاء الديب

المتابعة الفنية
جيهان أبو النجا

التصميم الجرافيكي
آمال عزت

دورية
علوم المخطوط

حولية تراثيَّةٌ محكَّمة مطبوعةٌ (لها موقعٌ إلكتروني) تصدر عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، تختص بنشر ما يتَّصل بعلوم المخطوطات، والدراسات والترجمات التراثية، والتحقيقات، بالإضافة إلى التعقُّبات والنقود.

الهيئة الاستشارية

الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح (تونس)

الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين (المغرب)

الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد (مصر)

الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف (العراق/ الأردن)

الأستاذ الدكتور بيتر بورمان (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي (مصر)

الدكتور فيرنر شفارتس (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور ماهر عبد القادر (مصر)

الأستاذ الدكتور يحيى بن جنيد (السعودية)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

علوم المخطوط

دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد السادس
٢٠٢٣

مركز المخطوطات
Manuscripts Center

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

علوم المخطوط. – ع6 (2023)- . – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز المخطوطات، 2023.

مجلدات ؛ سم.

سنوي

ردمد 3283–2636

«دورية علمية سنوية محكمة»

1. المخطوطات-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. مركز المخطوطات.

ديوي –011.31 2020591848848

ISSN 3283–2636

رقم الإيداع: 24367/ 2023

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢٣.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الدورية، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الدورية، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص. ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبِع بمصر

قواعد النشر

- ألا يخرج البحث عن موضوعات الدورية: (الكوديكولوجيا، تاريخ وفلسفة العلوم، تحقيقات، ترجمات لنصوص تراثية أو لتحقيقات، تعقُّبات ونقد للتحقيقات والدراسات التراثية).
- أن يكون البحث متسمًا بالأصالة والابتكار والمنهجية؛ مستوفيًا شروط البحث العلمي.
- أن يكون البحث غير منشور من قبلُ بأيّ صورةٍ من صور النشر، وغيرَ مستلٍّ من كتابٍ منشور أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه). وفي حال قبول البحث للنشر، لا يجوز نشره في أي منفذ نشرٍ آخر ورقيٍّ أو إليكترونيّ دون إذن كتابي من رئيس هيئة التحرير.
- ألا يزيد عدد كلمات البحث -كاملًا- على ١٠ آلاف كلمة، ولا يقل عن ٥٠٠٠ كلمة (للبحوث، والدراسات، والنصوص المحققة)، ولا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة (للنقود، والمراجعات، وعرض الكتب، والترجمات). ويحسب ضمن ذلك: الهوامش، والملاحق، والفهارس، والمراجع والمصادر، والرسوم والأشكال، وصور المخطوطات أو الوثائق.
- يُصدَّر كل بحث بملخص لا يزيد على ١٥٠ كلمة، باللغتين العربية والإنجليزية.
- يقدَّم البحث مكتوبًا إلكترونيًّا بصيغة (Ms Word)، عبر البريد الإلكتروني للمجلَّة، مع سيرةٍ ذاتيَّة معبِّرة عن صاحبه. مع ضرورة أن تكون الأبحاث العربية مكتوبة بخط Traditional Arabic (للمتن بنط ١٦، للهامش بنط ١٢)، أما الأبحاث المكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية فتكتب بخط Times New Roman (للمتن بنط ١٢، للهامش بنط ١٠)، ويُراعى أن تكون المسافات بين الأسطر ١,٥سم. والالتزام باستخدام الأقواس، وتوحيد الترقيم، وفي حالة كون النص عربيًّا يستخدم الأرقام Hindi. وفي حالة وجود صور ملحقة، لا يقل درجة وضوح الصور عن ٣٠٠ بصيغة TIF أو JPG.
- أن تتسم لغة البحث بالسلامة والفصاحة والدِّقة، وأن يكون البحث دقيقًا في التوثيق والتخريج، وتضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأمثال المأثورة، وأن تُراعى علامات الترقيم مراعاةً تامَّة.

- توضع الهوامش والإحالات في أسفل الصفحة إلكترونيًّا، وتُفصل بخط عن «المتن». ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث كله.
- أن تُثبت المصادر والمراجع في آخر البحث، ويراعى في ثبت المصادر والمراجع -وكذلك في الهامش السفلي للصفحات- أن يكتب اسم المصدر أو المرجع أولًا، فاسم المؤلف، يليه اسم المحقِّق أو المراجِع أو المترجِم في حال وجوده، ثم دار النشر.. إلخ.
- التحكيم سري، وقرار إجازة نشر البحث أو رفض نشره قرارٌ نهائيّ. وفي حال الإجازة مع التعديل يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة -في مدة محددة- إذا كان قرار هيئة التحكيم بإجازة نشر البحث مشروطًا بذلك. أما في حال الرفض فإن هيئة التحرير تحتفظ بحقها في عدم إبداء الأسباب، واستثناءً يجوز لهيئة التحرير أن تزوِّد الباحث بالملحوظات والمقترحات التي يمكن أن يفيد منها في إعادة النظر في بحثه.
- لهيئة التحرير إجراء أي تعديلات شكلية تراها مناسبة لطبيعة المجلة.
- تلتزم هيئة التحرير بإخطار الباحث بنتيجة صلاحية بحثه للنشر.
- تراعي الدورية في أولوية النشر عدة اعتبارات، هي: حداثة موضوع البحث، تاريخ التسلُّم، صلاحية المادة للنشر دون إجراء تعديلات، تنوُّع مادة العدد.
- المواد المنشورة في الدورية لا تعبر بالضرورة عن مركز المخطوطات أو مكتبة الإسكندرية، ويعد كاتب البحث مسؤولًا عما ورد في النص الذي قدَّمه للنشر.
- يُمنح صاحب البحث نسختين مجانيتين من العدد المنشور فيه البحث.

المراسلات:

توجه جميع المراسلات عبر البريد الإلكتروني الخاص بهيئة التحرير:
manuscripts.center@bibalex.org أو layla.khoga@bibalex.org

الفهرس

تصدير ٩

تقديم ١١

افتتاحية العدد ١٣

دراسات التحقيق والفهرسة

تحزيب أبي صفوان حُميد بن قيس الأعرج المكي (ت: ١٣٠هـ) بين مصادر الخبر وعد الآي: دراسة استقرائية تحليلية نقدية مقارنة
د. بشير بن حسن الحميري ١٧

تحقيق مخطوطات التراث الشعبي: نظرات تطبيقية في الأدوات والإجراءات المنهجية
د. هشام عبد العزيز ٦٧

دراسات منجَز الشخصيات التراثية

السيرة العربية للقديس الفارس الشهيد فيلوباتير مرقوريوس (أبي سيفين): أضواء على التراث الشعبي المسيحي المصري
د. باسم سمير الشرقاوي ١٠٩

دراسات كوديكولوجية

دراسة أثرية لفنون الكتاب لمخطوط أدبي محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم ١٣٠٩٩ (ينشر لأول مرة)
د. أحمد سامي بدوي زيد، د. محمد قطب أبو العلا ١٥٥

بحوث مترجمة

طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا (الجزء الثاني)
ماكس مايرهوف، ترجمة: د. محمد علي الكردي ٢٣٣

تصدير

يُعد التراث العربي المخطوط من أهم الآثار التي ورثناها من تاريخ الحضارة الإسلامية، فهو الحافظ للتراث الديني، بالإضافة إلى أنه يُسجل لنا الإسهام العلمي والمعرفي الذي قدمه العرب في كل العلوم الطبيعية، ولولاه لفقدنا الكثير من تراثنا العقائدي والفكري، ولذلك وجب علينا تسخير كل الإمكانات في المحافظة على ذلك التراث والعمل على نشره والتعريف به.

وحقيقٌ بنا في ظل ما نعيشه الآن من حالة الارتباك الثقافي الاهتمامُ بالمحتوى المعرفي للكتاب المخطوط، فهو الفيصل في ترجيح المعطيات التاريخية الملتبسة في تاريخنا الإسلامي. ولا شك في أننا نقرأ على صفحات تلك المخطوطات الجوانب المشرقة لما قدمه علماء الدين والفلاسفة المسلمون من إسهام فكري وتقدم علمي اعتمد عليه العرب وغيرهم في تأسيس المعرفة والقيام بدور مهم في الإضافة إلى الفكر البشري كله.

وأخيرًا، لا بد من القول بأن الاهتمام بنشر مثل تلك الدراسات المتخصصة في المخطوط العربي لهو دليل على المسار المعرفي الواضح الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية من خلال تقديم أعمالٍ بحثيةٍ جادة في تراثنا العربي الإسلامي، والذي ما زلنا نعمل على الكشف عن كنوزه المعرفية.

أ. د. أحمد عبد الله زايد

مدير مكتبة الإسكندرية
ورئيس مجلس إدارة الدورية

تقديم

يقدم مركز ومتحف المخطوطات التابع لقطاع التواصل الثقافي بمكتبة الإسكندرية جهدًا كبيرًا في المساهمة في عملية الحفاظ على التراث المخطوط من خلال أعمال استمرت لسنواتٍ عدة؛ بدءًا بالفهرسة والتوثيق، ومرورًا بالترجمة، والتحقيق، والترميم، والحفظ، والعرض المتحفي.

ويستمر القائمون على مركز ومتحف المخطوطات في العمل على كل ما يخدم ذلك التراث المكتوب بأيدي النساخ والعلماء المسلمين بإخراج دورية «علوم المخطوط» التي تضم في أعدادها السنوية أهمَّ ما يكتبه الباحثون المعاصرون في التراث المخطوط من علوم وفنون تحتاج إلى الإضاءة الدائمة للتذكير بإسهام المسلمين في كل العلوم.

وها هو العدد السادس يصدر في حُلة قشيبة، ويغطي مجالات متنوعة من دراسات التراث المخطوط. وسيرًا على هدي الأعداد السابقة، يحافظ فريق هيئة تحرير المجلة على مستوى البحوث المنشورة، من حيث الرصانة العلمية والتحكيم الدقيق.

وأخيرًا، فإن على مركز ومتحف المخطوطات مسؤولية كبيرة تجاه حفظ التراث العربي والإسلامي، وإتاحة المعرفة التراثية لكل ذوي الاهتمام والتخصص، في محاولةٍ لجعل شبابنا يؤمنون بأن لهم تاريخًا عظيمًا، وأن الحضارة العربية أسهمت إسهامًا كبيرًا في خدمة الإنسانية.

د. محمد سليمان

رئيس قطاع التواصل الثقافي
والمشرف العام على الدورية

افتتاحية العدد

في هذا العدد السادس، تقدم دورية «علوم المخطوط» مجموعةً متنوعة من الدراسات البحثية في علوم المخطوط وفنونه، ففي دراسات التحقيق والفهرسة نقرأ للدكتور بشير بن حسن الحميري بحثه المعنون بـ: تحزيب أبي صفوان حُميد بن قيس الأعرج المكي (ت: ١٣٠هـ) بين مصادر الخبر وعد الآي: دراسة استقرائية تحليلية نقدية مقارنة. وقد قدَّم البحث أحد الأوجه في العدد المكي، من خلال التحزيب الذي وضعه حُميد الأعرج، بعيدًا عن التصحيفات والتحريفات؛ بمقارنته بعدة مصادر.

أما البحث الثاني في القسم ذاته فعنوانه: تحقيق مخطوطات التراث الشعبي: نظرات تطبيقية في الأدوات والإجراءات المنهجية، للدكتور هشام عبد العزيز الذي عرض بعض أهم التجارب السابقة في مجال تحقيق التراث العربي لباحثين عرب وأجانب، وما استطاعوا إنجازه في هذا الصدد، من وجهة نظره. وفي هذا السياق، استعرض الباحث بعض الإجراءات المنهجية الأساسية في علم تحقيق التراث محاولًا الكشف عن التغييرات الضرورية في هذه الإجراءات عند تحقيق نص شعبي مخطوط.

وفي دراسات منجَز الشخصيات التراثية نقرأ البحث المعنون بـ: السيرة العربية للقديس الفارس الشهيد فيلوباتير مرقوريوس (أبي سيفين): أضواء على التراث الشعبي المسيحي المصري، للدكتور باسم سمير الشرقاوي، كنموذج للسير الشعبية المصرية المسيحية المدونة باللغة العربية بلهجتها المحلية، ساعيًا للكشف عن هوية المؤلف المنحولة إليه السيرة، وتتبع بعض المفردات المستخدمة بالنص والشائعة في الحضارة العربية.

أما الدراسات الكوديكولوجية، فننشر فيها: دراسة أثرية لفنون الكتاب لمخطوط أدبي محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم ١٣٠٩٩ (ينشر لأول مرة)، للدكتور أحمد سامي بدوي زيد والدكتور محمد قطب أبو العلا. وتحاول الدراسة أن تثبت أن المخطوط هو نسخة من مخطوط ديوان حافظ الشيرازي، وأن المخطوط لا ينسب إلى إيران، وإنما ينسب إلى مركز كشمير بالهند، وتمكنت الدراسة من تأريخه بالقرنين (١٢-١٣هـ/ ١٨-١٩م)، وفقًا لمقارنة هذه النسخة بمجموعة من النسخ الأخرى المشابهة.

وأخيرًا في قسم البحوث المترجمة نورد نصًّا مهمًّا من نصوص المستشرق ماكس مايرهوف: طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا، الجزء الثاني، ترجمة الأستاذ الدكتور محمد علي الكردي (رحمه الله).

د. مدحت عيسى
مدير مركز المخطوطات
ورئيس تحرير الدورية

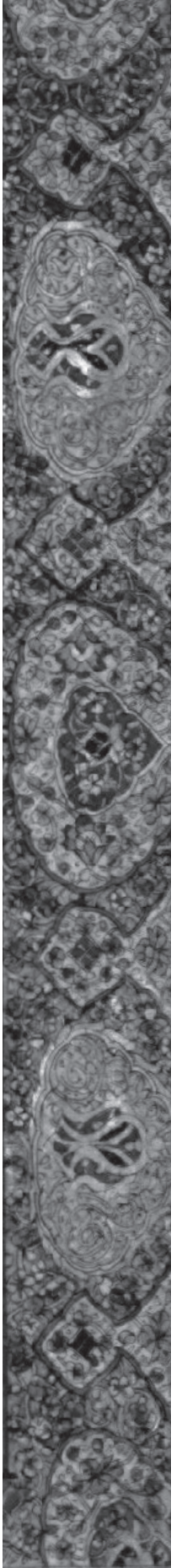

بحوث مترجمة

طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا

ماكس مايرهوف[*]

ترجمة: د. محمد علي الكردي[**]

(الجزء الثاني)

لاحظ زميلي جواندس في دراسة سابقة له، نشرها بالقاهرة في عام ١٩٣٤م تحت عنوان: «نبذة عن طب النساء والولادة عند المصريين واليونان»[***]، أنه لم تتم بعدُ دراسة طب النساء في الحقبة العربية الإسلامية بعمق، إذ لا يزال الجزء الأعظم من الوثائق الهائلة الخاصة بهذه الفترة قابعًا في صورة مخطوطات عربية وفارسية في مكتبات الشرق والغرب. وليس من شك في أن القيام بهذا العمل على أحسن وجه يتطلب العديد من جهود الأطباء المستشرقين. وسوف نتبين فيما بعد أن عدد النصوص المنشورة منها حتى اليوم جدّ قليل، وأن عدد ما تمت ترجمته إلى اللغات الأوروبية غير معبِّر تمامًا.

نحن نخاطر إذن بمباشرة هذا الموضوع على طريقة الرواد، أي باقتفاء أهم النصوص المنشورة في هذا الصدد، ألا وهو كتاب «القانون في الطب» للطبيب الفارسي العربي الشهير ابن سينا، وهو

(*) ماكس مايرهوف (١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م – ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م): صاحب البصمة التي لا تخطئها عين في التراث الطبي العربي والإسلامي، وقد عاش في القاهرة ودُفن فيها. وللمزيد عنه يُراجع بحث الدكتور أحمد السري «المستشرق الألماني ماكس مايرهوف والتراث الطبي العربي الإسلامي»، **مجلة العلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، العدد ١٠٥، الكويت، ٢٠٠٩م: ٦٧-١٠٩.

(**) أستاذ بقسم اللغة الفرنسية، ووكيل الدراسات العليا سابقًا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

(***) Joannidès, *Esquisse de la gynécologie et de l'obstétrique chez les Égyptiens et les Grecs*, Le Caire, 1934.

النص الذي نُشر في مصر وفارس والهند باللغة العربية وفقًا للطبعة الأصلية Edition Princes المنشورة بروما عام ١٥٩٣م. وصحيح أن هذا النص قد تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر؛ كما طُبع بهذه اللغة أكثر من مرة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. غير أن هذه الترجمات كانت بعيدة كل البعد عن الصواب، وأحيانًا غير مفهومة على الإطلاق. ومن ثم، كان لزامًا علينا، حتى نُكوّن تصورًا محددًا لفكر هذا الطبيب الإسلامي العظيم، أن نَرجع إلى النص العربي الأصلي لمؤلّفه الكبير، وذلك بقدر ما نجد به مصنفةً ومقننةً موسوعة المعارف اليونانية بعد أن أُضيفت إليها المعارف العربية. على هذا النحو، سوف نعثر لدى ابن سينا، بجانب النظريات الفيزيو - باثولوجية للمدارس الطبية اليونانية القديمة على ثمرة تجارب وخبرة أجيال من أطباء وقابلات العصور الإسلامية. ولقد بدا لنا أنه من الأهمية بمكان أن نفحص في هذا الكتاب، فصلًا بعد فصل، عملية تتابع النظريات القديمة مع توضيحها بواسطة ما تجمَّع لدينا من معطيات الحقب التالية. لقد استطاع واحد من كبار عباقرة العصور قاطبة أن يجمع ذلك كله بقدر كبير من التركيز في إطار نسق يفرض منطقه؛ وإن كان هذا النسق لا يمكنه، من غير شك، أن يصمد أمام العلم الحديث. إلا أنه يبقى لزامًا علينا أن نتتبع، خلال ردح من الزمن، مسيرة تاريخ الطب التي لم تكن دومًا إلا سلسلة من الأخطاء.

١- نظرة إلى الخلف: طب النساء عند اليونان وانتقاله إلى العرب

يمكننا أن نكتفي هنا بتلخيص أحدث الكتب وأفضلها توثيقًا من بين كل ما صدر في السنوات الأخيرة، ألا وهو كتاب «تاريخ طب النساء في العصر القديم» للأستاذ بول ديبجن من برلين[١]؛ إذ إننا نجد به، من بين ما يتضمنه، إحصاءً منهجيًّا لكل معارف أطباء اليونان فيما يخص الحياة الاجتماعية والصحية للمرأة في إطار الحياة القديمة بعامة.

وكان الدكتور جوانيدس قد قدم في بحثه سابق الذكر تصورًا عامًّا عن نظريات طب النساء لدى اليونان منذ إبقراط حتى سورانوس[٢] وجالينوس (القرن الثاني الميلادي). ولقد أشار إلى فقدان كتب مدرسة الإسكندرية، وضياع نتاج هيروفيلوس[٣] العظيم في مجال التشريح في القرن الثالث قبل الميلاد، والمعروف عنه أنه قد ألَّف كتابًا بعنوان «فن التوليد» *Maiotikón*، ونتاج معاصره الكبير إراسستراتوس[٤] الذي ألّف أيضًا كتابًا في طب النساء.

ولقد اقتفى كثير من التلاميذ خطى أساتذتهم؛ إذ حفظ لنا سورانوس في مؤلفاته عن طب النساء مقتطفات من أعمالهم. كما حلَّ محل باثولوجيا الأخلاط المأثورة عن مدرسة الإسكندرية ضرب آخر من الباثولوجيا المادية مثَّلتها، على الأخص، المدرسة الطبية المنهجية (Méthodique) التي تأسست وترسخت في روما منذ بداية القرن الأول الميلادي. ولقد تخرج سورانوس الإفسي في هذه المدرسة، وهو يُعد أشهر ممثل لعلم الطب النسائي في العهد القديم. فقد عاش، بعد أن أتم دراسته بالإسكندرية في روما إبان حكم الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، ونحن ندين له

(١) P. Diepgen, *Die Frauenheilkunde der Alten Welt,* dans Handbuch der Gynäkologie von W. Stoeckel. 3e éd., vol. XII. 1. München, 1937.

(٢) عاش سورانوس الإفسي في عصر الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، وكان رئيسًا للمدرسة المنهجية. وفي أعماله الشهيرة مبحثه عن «أمراض النساء». (المترجم)

(٣) هيروفيلوس السكندري (٣٣١–٢٥٠ ق.م) وهو يعد، مع إراسستراتوس، من أهم الأطباء المعنيين بالتشريح. ويُنسب إليه تشريح العين والكبد والبنكرياس والجهاز الهضمي، وتحديد وظيفة القلب في عملية النبض. (المترجم)

(٤) إراسستراتوس من كيو (٣١٠–٢٥٠ ق.م) طبيب إكلينيكي ذو باع كبير في علم التشريح. وهو يُعد، مع هيروفيلوس، من مؤسسي مدرسة الطب بالإسكندرية في عهد البطالمة. (المترجم)

بعملين نمتلك أشهرهما، وهو مبحث «طب النساء» *Gynaikeia*. أما العمل الآخر، وهو موجز لفن التوليد من أجل القابلات، فلم نعثر إلا على ترجمة لاتينية لجزء منه ندين بها لشخص يدعى موسكيون Muscion[٥]. ولقد تمت ترجمة هذه النسخة إلى اليونانية، مرة ثانية، خلال العصر البيزنطي. وكانت هذه الأعمال الأخيرة تزدان برسوم توضيحية تظهر أوضاع الطفل في الرحم وفقًا للتقاليد البيزنطية.

كما تخرج في مدرسة يونانية أخرى، تعرف بالمدرسة التنفسية (Pneumatique)، التي كان يرى روادها في ظاهرة التنفس سببًا للحياة، وفي اضطرابها علة للمرض، المتخصص البارز فيلومينوس (القرن الثالث الميلادي) الذي احتفظ لنا الطبيبان الهللينستيان أوريباز وأيثيوس[٦] بمقتطفات من طبه للنساء. ولقد ترك لنا جالينوس العظيم (١٣١-٢٠١م) أشهر القدماء من الأطباء بعد إبقراط من بين العديد من أعماله، ملخصًا في تشريح الرحم وملخصين آخرين عن تكوين الجنين وعن الوضع في الشهر السابع. كما تحدث كذلك جالينوس عن أمراض النساء في كثير من أعماله الكبرى عن الباثولوجيا. ولقد لاحظنا، كما هي القاعدة العامة لدى كل أطباء العصر القديم، تأثره الشديد بالفلسفة فيما يخص الأسس النظرية لأفكاره، كما نقع غالبًا في أعماله على أثر نظريات أفلاطون وأرسطو والرواقيين. ويجب علينا ألا ننسى أيضًا أن الطب الشعبي كان له نصيبه في تشكيل الفكر الطبي لهذه العصور؛ وهذا ما سوف نجده، على وجه خاص، في الأعمال الموسوعية الكبرى: موسوعة كلسوس Celse في الطب[٧]، وموسوعة بلينيوس Pline[٨] في التاريخ الطبيعي، مع بداية العصر المسيحي.

(٥) موسكيون: طبيب يوناني ترجم كتب سورانوس من القرن الثاني الميلادي وذكره سورانوس في كتابه «فن التوليد». (المترجم)

(٦) أوريباز: طبيب يوناني من القرن الرابع الميلادي (٣٢٥-٣٩٥م) قام بنشر موسوعات طبية تضم حوالي سبعين كتابًا معظمها مختارات من أعمال جالينوس في الطب والتشريح والفيزيولوجيا. أيثيوس Aetius: من أميدا ببلاد ما بين النهرين، وهو فيزيائي بيزنطي ومؤرخ للطب من بدايات القرن السادس الميلادي. (المترجم)

(٧) أولوس كورنيليوس كلسوس (٢٥ ق.م-٥٠م): موسوعي روماني لم يتبقَّ من أعماله إلا مبحثه في الطب *De Medicina* الذي يعد أفضل مصدر للتعرف على الطب في الإسكندرية القديمة. (المترجم)

(٨) بلينيوس (٢٣-٧٩م): عالم طبيعيات وكاتب لاتيني، مات في حادث انفجار بركان الفيزوف عام ٧٩م. له موسوعة ضخمة في التاريخ الطبيعي تشمل ٣٧ كتابًا.

لقد عرف الطب بعامة، والطب النسائي بخاصة، مرحلة من الركود منذ القرن الرابع الميلادي، إذ إن الغرب، الذي خرَّبته الغزوات الهمجية، سرعان ما فقد صلته بالتراث اليوناني الذي لم يظل متماسكًا إلا في قلب الإمبراطورية البيزنطية. ومع ذلك، فإن أعمال كبار الأطباء لم تَسْلَم هي الأخرى من الأفول بعد أن تم اختصارها وإعدادها، فيما تبقت من ظلال الإسكندرية، بغرض الاستخدام الميسر للممارسين. وحينما استولى العرب على الأراضي الآسيوية والإفريقية من الإمبراطورية البيزنطية وعلى بلاد الفرس الساسانيين (٦٣٤-٦٤٢م) كان انشغالهم الأول متصلًا بتنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة التي صاروا سادة لها. وكان الطب وقتئذٍ في أيدي مجموعة من العلماء المسيحيين الذين يتحدثون اللغة الآرامية المستحدثة أي السريانية، والذين كانوا قد ترجموا المؤلفات الطبية اليونانية، كما كانوا يعالجون المرضى وفقًا للنظام الطبي الكلاسيكي.

وفي غضون القرن الثامن الميلادي، بعد نقل عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، بدأ خلفاء بني العباس يهتمون بالعلوم فكلَّفوا علماءً من السريان بترجمة الأعمال الفلسفية والطبية والعلمية ترجمة منهجية، الأمر الذي استغرق طوال القرن التاسع الميلادي. وكان رائد هذا العمل الخليفة المأمون الذي أنشأ في بغداد بيت الحكمة، وقام باقتناء العديد من المخطوطات اليونانية التي تمت ترجمتها، فيما بعد، إلى السريانية والعربية. ويعد العراقي المسيحي حنين بن إسحاق (٨٠٩-٨٧٣م) من أشهر علماء هذه الحقبة. فلقد أنجز بمفرده ليس عددًا هائلًا من الترجمات فحسب، وإنما درّب كذلك العديد من التلاميذ الذين استكملوا مهمته بعد أن عملوا تحت إمرته في مقتبل حياته. لقد ترجم منفردًا إلى السريانية والعربية مجموعة إبقراط وما يزيد على مائة وثلاثين كتابًا لجالينوس، وكذلك التصنيفات التي جمعها أوريباز وبول الإجيني[٩]؛ آخر تلاميذ المدرسة اليونانية بالإسكندرية. لقد هطلت هذه الثروة من المترجمات على الأرض القاحلة للعلم العربي كالغيث، وسرعان ما بزغ الأطباء الكبار ومعظمهم من أصول فارسية. لقد طبّق هؤلاء الأطباء العلم الجديد مستفيدين بما وفَّره لهم على مستوى النظرية والممارسة. كما كانوا، بالإضافة إلى ما يمتلكونه من ثروة في مجال الملاحظات العملية، يستخدمون معارف أطباء الهند

(٩) بول الإجيني: طبيب يوناني من القرن السابع الميلادي (٦٢٥-٦٩٥م) درس الطب بالإسكندرية. وكان العرب يبجلونه وأطلقوا عليه لقب «المولِّد» نظرًا لموهبته الفائقة في مجال الولادة. (المترجم)

الذين كانوا يُستدعون من حين إلى آخر إلى قصور الخلفاء. هذا بجانب ما أفادوه من العقاقير الآسيوية المتعددة والمجهولة عند بني اليونان، وذلك بغية إثراء مخزونهم من المعلومات الطبية.

لقد انتقل الطب في القرن العاشر، بعد أن كان حتى القرن التاسع في حوزة المسيحيين، إلى المسلمين الذين سرعان ما قاموا بتأليف الموسوعات الطبية الكبرى التي وصل إلينا الكثير منها. ونذكر بدايةً كتاب «الحاوي في الطب» الذي ألفه محمد بن زكريا الرازي حوالي سنة تسعمائة ميلادية، وهو موسوعة علاجية ضخمة تقع في أربع وعشرين جزءًا، وما زال الكثير من هذه الأجزاء موجودًا باللغة العربية بمكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد. ولقد تُرجم الكتاب *Continens Medicinae* كله إلى اللاتينية حوالي عام ١٢٨٠م، وطُبع في برسكيا بإيطاليا عام ١٤٨٦م. كما ألف الرازي أيضًا، مبحثًا كاملًا في الطب، هو «الكتاب المنصوري» الذي يقع في عشرة أجزاء، والذي كان قد أهداه إلى المنصور أمير خراسان. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، كما استُخدم أساسًا للتعليم حتى منتصف القرن السابع عشر.

ويأتي بعد ذلك «الكتاب الملكي» *Liber Regius* لعليّ بن العباس الطبيب الفارسي بمستشفى بغداد في القرن العاشر. وهذا الكتاب محفوظ بكامله في نسخته العربية (طبعة القاهرة لعام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م)، وإن كانت توجد له ترجمة باللاتينية *Tegaleis Dispositio* طُبعت لأول مرة في البندقية عام ١٤٩٢م. ولقد تُرجم الجزء الخاص بالتشريح من هذه الموسوعة الطبية الهامة، ونُشر مصحوبًا بالنص العربي من قِبل دي كوننج(١٠). ومن الملاحظ أن وصف الأعضاء الجنسية للمرأة وفيزيولوجيا الجنين اللذين يشكلان خاتمة هذا الجزء، ويشغلان ما لا يقل عن أربع وأربعين صفحة، كانا بالغي التفاصيل. ونحن نجد في هذا الجزء مجمل المعارف اليونانية، بالإضافة إلى الإسهام العربي الكبير، وكذلك بعض التصويرات الفلكية عن تأثير الكواكب على تكوين الطفل خلال الشهور التسعة الأولى في رحم الأم. لذلك نحن نفضِّل تتبُّع طب النساء عند ابن سينا نظرًا لإيجازه وبُعْده أكثر من غيره عن الخيال.

(١٠) P. de Koning, *Trois traités d'anatomie arabe*, Leyde, 1903, p. 91-431.

إلا أنه يجدر بنا، في البداية، الإشارة إلى الأخطاء الثلاثة الكبرى لدى أطباء اليونان في مجال التشريح والفيزيولوجيا، وهي الأخطاء نفسها التي انتقلت إلى الطب العربي. وأول هذه الأخطاء، الاعتقاد بالشكل المزدوج القرن للرحم، وسبب هذا الخطأ هو المماثلة مع الحيوان، نظرًا لتحريم الديانات كلها التشريح خلال العصور القديمة والوسطى. والخطأ الثاني هو الوجود الافتراضي لزوائد (Cotylédons) أو أغشية مخاطية حول الرحم تعمل على تغذية الطفل. والخطأ الثالث هو فكرة رحلة الرحم (Migration) في جسم المرأة. ولعل هذا التصور الأخير يرجع إلى بعض المعتقدات الشعبية؛ وليس من المستبعد أن يكون مصدره الدين لدى قدماء المصريين. ونجد، كذلك، هذه الفكرة عند أفلاطون الذي كان يعتقد أن الرحم أشبه بـ «حيوان نَهِم إلى التناسل»، وأنه، من ثم، يقوم برحلة في الجسم إذا لم يحقق غايته المقدَّرة له، وأنه يسبب، على هذا النحو، الأمراض ومن بينها الهستريا. ولقد كان إبقراط يؤمن أيضًا بهذه الفكرة، وإن كانت مدرسة الإسكندرية قد استطاعت، بما امتلكته من معارف أكثر دقة وتقدمًا بالحقائق التشريحية، أن تزعزع هذه النظرية الغريبة، ولكنها، مع ذلك، لم تقضِ عليها تمامًا.

٢- نبذة عن حياة ابن سينا

يُعد أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ظاهرة ثقافية نادرًا ما نجد لها نظيرًا بين علماء الحضارة الإسلامية. وقد وُلد سنة ٩٨٠م بقرية من بلاد ما وراء النهر Transoxiane بآسيا الوسطى. لذلك يعتبره الأتراك، منذ فترة قريبة، واحدًا منهم[١١]. وكانت لغته الأم الفارسية، وإن كان يكتب، خاصةً، باللغة العربية. ونحن ننقل من سيرته الذاتية[١٢] المقتطفات التالية التي تدل على نبوغه المبكر والشاسع: «إن أبي كان رجلًا من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح ابن منصور[١٣] واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرمثين من ضياع بخارى... وبقربها قرية يقال لها أفشنة، وتزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن، ووُلدت منها بها. ثم ولدتْ أخي، ثم انتقلنا إلى بخارى. وأحضرتْ معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملتُ العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب». ويضيف ابن سينا أن أباه وأخاه قد اعتنقا مذهب الإسماعيليين الذين كانوا يحكمون مصر (الفاطميين) ولكنه لم يتبعهما في ذلك. ويكمل قائلًا: «وأخذ [أبي] يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي[١٤] وكان يُدعى المتفلسف، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد... ثم ابتدأت بكتاب «إيساغوجي» على النائلي». ثم يحكي لنا ابن سينا، بعد ذلك كيف فاق معلمه وأحرجه بأسئلته: «ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق.

(١١) لقد نشر معهد تاريخ تركيا، بمناسبة السنوية التاسعة لوفاة ابن سينا، مجلدًا ضخمًا من الأبحاث القيمة باللغات التركية والفرنسية والعربية عن حياة وأعمال العالم الكبير (عن الفيلسوف والطبيب التركي الرئيس ابن سينا.. إسطنبول ١٩٣٧). وتحتوي هذه الطبعة على مراجع مهمة.

(١٢) توجد هذه السيرة في المؤلَّف الكبير عن تاريخ الأطباء العرب «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة، المتوفى في دمشق سنة ٤٧٠م، الجزء الثاني: ٢-٤. ولقد أملاها ابن سينا على تلميذه الجوزجاني.
[تقع هذه السيرة في صفحات ١-٤ من «عيون الأنباء»، منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٩٩٨م. (المترجم)].

(١٣) حاكم بلاد ما وراء النهر (٩٧٦-٩٩٧م).

(١٤) يكتبه المستشرق: «الناتلي». (المترجم)

وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى «المجسطي» لبطلميوس»[١٥].

ويقول ابن سينا إنه تعلم الأشكال الهندسية بهذا الكتاب الأخير، وشرحها لأستاذه النائلي الذي ارتحل بعد ذلك إلى بخارى. ويضيف: «ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب. وتعهدت المرضى، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف [ما لا يوجد في الكتب][١٦].

وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه..، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق، وجميع أجزاء الفلسفة... وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي. ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم، حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو»[١٧]. ثم يضيف ابن سينا كيف أنه لم يستطع فهم هذا الكتاب بالرغم من أنه قرأه أربعين مرة حتى «صار له محفوظًا»، إلى أن وقع بالصدفة على كتاب مفيد، هو «كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة»، الذي يُعد صاحبه أول فيلسوف أرسطي شهير في العصر الإسلامي، وحينما استشاره سلطان بخارى نوح ابن منصور في مرضه، انتهز ابن سينا الفرصة وطلب منه الدخول إلى مكتبته، حيث استطاع الاطلاع على ما بها من كتب نادرة ونفيسة أثْرَت معارفه في مجال العلوم والآداب ثراءً جمًّا. وفي سن الثامنة عشرة من عمره استكمل ابن سينا دراساته وتملك ناصية العديد من العلوم.

(١٥) **عيون الأنباء**، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م: ٤٠١.
(١٦) عبارة توضيحية للمستشرق.
(١٧) **عيون الأنباء**: ٤٠٢.

ولقد أفاده ذلك في تحرير أول كتاب له، وهو كتاب جامع لكل العلوم، طلبه منه صديق له[١٨]، وفي سن الواحدة والعشرين صنّف من أجل صديق آخر[١٩] كتابًا في الفقه والتفسير (الحاصل والمحصول)، وهو يقع في عشرين مجلدًا، وكذلك صنّف مبحثًا في الأخلاق (كتاب البر والإثم)، ثم فَقَد ابن سينا، بعد ذلك، والده، وغادر بخارى في رحلة طويلة عبر بلاد ما وراء النهر وشرق فارس وجنوب شرق بحر قزوين Hyrcanie، قاصدًا خدمة الأمير قابوس؛ أحد كبار حماة العلماء. بيد أن هذا الأخير فقد عرشه عام ١٠١٢م، فاضطر ابن سينا إلى مواصلة ترحاله إلى أن مرض مرضًا شديدًا بدهستان في بلاد فارس فرجع إلى جرجان.

عند هذا الحد ينتهي الجزء الخاص بالسيرة الذاتية للشيخ الرئيس، إلا أن تلميذه المخلص الجوزجاني أكمل سيرة حياته المضطربة. لقد بدأ ابن سينا في جرجان تأليف أهم أعماله، كما شرع في إلقاء عدد من دروسه. ونخص بالذكر هنا الكتاب الأول من «القانون في الطب»، الذي سوف نستخلص منه الجزء الخاص بتشريح الأعضاء التناسلية. لقد انتقل ابن سينا، بعد ذلك، إلى ميديا Médie وطبرستان (جنوب بحر قزوين). وبالرغم من هذه الرحلات، فإن الرجل حافظ على فيض إنتاجه المدهش الذي ما زالت ثماره محفوظة حتى اليوم في المكتبات في صورة مخطوطات عربية متعددة. ثم نراه يذهب، بعد ذلك، إلى همدان (إلى الغرب من بلاد فارس) حيث يعالج السلطان شمس الدولة، ويصاحبه في إحدى حملاته؛ كما يصبح وزيرًا له. ولقد اضطر إلى الاختباء إثر تمرد بعض الجند إلى أن استطاع السلطان إقرار الأمن والنظام. إلا أن ابن سينا يفقد، بعد وفاة هذا الأخير حظوته لدى خَلَفه الجديد، ويُزجّ به في السجن إلى أن يتمكن من الفرار إلى أصفهان، حيث يُحسن غريم السلطان الجديد استقباله. وبالرغم من كل هذه الفترات العصيبة، استطاع ابن سينا أن ينجز أهم أعماله الفلسفية، وهو «كتاب الشفاء»، الذي يضم ثلاثة أجزاء: الإلهيات والطبيعيات والرياضيات. وفيه أظهر قدرته على تفسير الفكر اليوناني بدقة ووضوح. ولقد أتم في أصفهان تحرير هذا الكتاب الأخير، كما قام بتصنيف كتب أخرى في المنطق والهندسة والحساب والموسيقى. وعند تكليفه ببعض الملاحظات في مجال الأرصاد، صحب سلطان أصفهان إلى هَمَدَان، حيث أُصيب

(١٨) هو أبو الحسين العروضي، المرجع السابق: ٤٠٣. (المترجم)
(١٩) هو أبو بكر البرقي، المرجع نفسه: ٤٠٣. (المترجم)

ببعض الاضطرابات المعوية (ربما الدوسنتريا) التي أودت بحياته عام ١٠٣٧م، وهو في سن السابعة والخمسين. وما زال قبر هذا المفكر العظيم قائمًا في هَمَدَان، حيث يُجلّه كل أطباء الشرق. على هذا النحو، تنتهي حياة هذا الرجل الفذ وصاحب الموهبة الخارقة. ولقد أطلق عليه معاصروه لقب الشيخ الرئيس، وهو لقب فخري تُرجم فيما بعد، إلى اللاتينية بعبارة *Princeps medicorum*.

إن ما يهمنا هنا هو إنتاج ابن سينا الغزير في كتابه «القانون في الطب»، الذي أتمه خلال إقامته بمدينة الرَّيّ في بلاد فارس. وتنقسم هذه الموسوعة الطبية الضخمة إلى خمسة أجزاء تشمل الموضوعات العامة والمواد الطبية والأمراض الخاصة، والأمراض المتصلة بمختلف الأعضاء، والأدوية والعقاقير. وسرعان ما ترجم هذا الكتاب، الذي يُعد من أوائل الكتب المطبوعة بعد اختراع الطباعة، إلى اللاتينية والعبرية. وأول طبعاته اللاتينية السابقة على المطبعة، ليست مؤرخة، أما أول طبعة عبرية له فتحمل تاريخ سنة ١٤٩١م. وأول طبعة عربية قامت بها مطبعة الميدتشي Medici بروما، وقد تمت في عام ١٥٩٣م، إلا أنها مكتظة بالأخطاء. أما الطبعات الحديثة الثلاث للنسخة العربية، فهي طبعة القاهرة (بولاق ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وطبعة طهران (١٢٨٤-١٢٩٤هـ/ ١٨٦٨-١٨٧٧م)، وطبعة لكنو بالهند (١٣٣٣هـ/ ١٩٠٥م). ولقد استخدمنا طبعة القاهرة لأنها الأفضل[٢٠]، وإن كانت تحتاج إلى المراجعة من بعض الدارسين للعربية ومن بعض الأطباء الذين على دراية بالطب القديم وكتاب القانون، كما عرضناه في المقدمة، من أجل الضبط والتنظيم المنهجي لكل المعارف الطبية اليونانية والعربية المحصَّلة حتى عصر المؤلف.

إن تشريح وفيزيولوجيا طب النساء اللذين سوف يشغلاننا في البداية يقعان عند ابن سينا في القسم (الفن) العشرين من الكتاب الثالث لكتاب القانون في طبعة القاهرة (المجلد الثاني، ص٥٥٥ وما يليها)، وهما يمثلان أولى المقالات الأربع لهذا القسم[٢١]، وهذا الجزء مقسم إلى فصول لا تحمل أرقامًا.

(٢٠) لقد اعتمدنا على النسخة التالية المحققة للمطابقة، وهي «القانون في الطب» للشيخ الرئيس أبي علي الحسيني بن علي ابن سينا. تحقيق الدكتور إدوار القشي، وتقديم الدكتور علي زيعور، الناشر مؤسسة عز الدين بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. (المترجم)

(٢١) في الواقع، إننا نقع هنا على التباس من قِبل المستشرق، فالفن العشرون يشتمل على مقالتين مستقلتين خاصتين بأعضاء التناسل، ولم يشر إليهما الباحث قط في دراسته. أما المقالات الأربع، التي يعتمد عليها في بحثه عن ابن سينا، فتشكل مادة الفن الحادي والعشرين. (المترجم)

٣- طب النساء لابن سينا

تدبير لبعض القدماء في إخراج الجنين الميت

«إن إخراج الجنين الميت وقطعه بالحديد إذا عسُر ولاد المرأة، فينظر هل تسلم أو هي غير سليمة، فإن كانت ممن تسلم أقدمنا على علاجها، وإلا فينبغي أن يُمنع عن ذلك، فإن المرأة التي حالها رديء يعرض لها غشيّ، وسهر ونسيان واسترخاء، وخلع، وإذا صُوِّت بها لا تكاد تجيب، وإذا نوديت بصوت رفيع أجابت جوابًا ضعيفًا، ثم يُغشى عليها أيضًا. ومنهن من تتشنج مع تمدد، ويضطرب عصبها، وتمتنع من الغذاء، ويكون نبضها صغيرًا متواترًا. وأما التي تسلم، فلا يعرض لها شيء من ذلك، فينبغي أن تستلقي المرأة على سرير على ظهرها، ويكون رأسها مائلًا إلى أسفل، وساقاها مرتفعتين، وتضبطها نساء أو خدم من كلا الجانبين، فإن لم يحضر هؤلاء رُبط صدرها بالسرير بالرباطات لئلا تنجذب جسدها عند المدّ، ثم تفتح القابلة سقف عنق الرحم، وتمسح اليد اليسرى بدهن، وتجمع الأصابع جمعًا مستطيلًا، وتدخل بها إلى فم الرحم، وتوسع بها، ويصبّ عليها من الدهن، وتطلب أين ينبغي أن تُغرز الصنّارات التي تجذب بها الجنين، والمواضع المرتفعة لتغرز فيها الصنّارات. وهذه المواضع هي في الجنين الذي ينزل على الرأس، العينان، والفم، والقفا، والحنك، وتحت اللَّحْي، والترقوة، والمواضع القريبة من الأضلاع، وتحت الشراسيف.

وأما في الجنين الذي ينزل على الرجلين، فالعظام التي فوق العانة، والأضلاع المتوسطة، والترقوة، ثم تمسك الآلة التي تجذب بها الجنين باليد اليمنى، وتدخل اليد اليسرى تحت الصنّارة فيما بين أصابعها، وتغرز في أحد المواضع التي ذكرناها حتى تصل إلى شيء فارغ، ويغرز بحذائها صنارة أخرى ليكون الجذب مستويًا ولا يميل في ناحية، ثم يمدّ، ولا يكون المدّ مستويًا بالحذاء فقط، بل في الجوانب أيضًا كما يكون انتزاع الأسنان. وينبغي في خلال ذلك أن يرخّى المدّ، ثم تدخل السبابة مدهونة وأصابع كثيرة فيما بين الرحم والجسم الذي قد احتبس، وتدار الأصابع حوله، فإذا اتبع الجنين على ما ينبغي، فلتنقل الصنارة الأولى إلى موضع آخر، وهكذا تفعل بالصنارات الأخرى حتى يخرج الجنين كله بالجذب، فإن خرجت يد قبل أختها، ولم يمكن ردّها لانضغاطها،

فينبغي أن تلفّ عليها خرقة لئلا تزلق، وتجذب حتى إذا خرجت كلها يقطع من الكف[٢٢]. وهكذا تفعل إن خرجت اليدان قبل عضديهما، ولم يمكن ردهما. وكذلك يفعل بالرجلين إذا لم يتبعهما سائر الجسد، يقطعان من الأربية، فإن كان رأس الجنين كبيرًا، وعرض له ضغط في الخروج، وكان في الرأس ماء مجتمع، فيجب أن يدخل فيما بين الأصابع مبضع[٢٣]، أو سكين شوكي، أو السكين الذي يقطع به بواسير الأنف، ويشق به الرأس لينصب الماء فيضمر. وإن لم يكن ماء واحتجت إلى إخراج دماغه فعلت. فإن كان الجنين عظيم الرأس بالطبع، فينبغي أن تشقّ الجمجمة، وتؤخذ بالكَلْبَتَيْن التي تُنزع بها الأسنان والعظام وتخرج. فإن خرج الرأس وانضغط الصدر، فليشق بهذه الآلة المواضع التي تلي الترقوة حتى يوصل إلى عظام فارغة، فتنصبّ الرطوبة التي في الصدر، وينضم الصدر. فإن لم ينضم، فينبغي حينئذ أن يقطع، وتنزع التراقي، فإنها إذا انتزعت أجاب حينئذ الصدر.

وإن كان أسفل البطن وارمًا، والجنين ميت أو حيّ، فينبغي أن يفرغ أيضًا بما ذكرناه مع ما في جوفه. وأما الجنين الذي يخرج على الرجلين، فإن جذبه يسهل، وتسويته إلى فم الرحم يهون وإن انضغط عند البطن أو الصدر، فينبغي حينئذ أن يجذب بخرقة، ويشق على ما وصفنا حتى ينصبّ ما في داخله. فإن انتزعت سائر الأعضاء، وارتجع الرأس، واحتبس، فلتدخل اليد اليسرى، ويطلب بها الرأس، ويخرج الأصابع إلى فم الرحم، ثم تدخل فيه صنارة، أو صنارتان من التي يجذب بها الجنين، ويجذب. وإن كان فم الرحم قد انضم لورم حار عرض له، فلا ينبغي أن يعنف به، بل ينبغي حينئذ أن يستعمل صبّ الأشياء الدسمة كثيرًا، والترطيب، والجلوس في الآبزن، واستعمال الأضمدة لينفتح فم الرحم، وينتزع الرأس كما قلنا. وأما ما يخرج من الأجنة على جانب، فإن أمكن أن يسوى، فليستعمل المذاهب التي ذكرناها، وإن لم يمكن ذلك، فليقطع الجنين كله داخلًا، وينبغي بعد استعمال هذه الأشياء استعمال أنواع العلاج للأورام الحارة التي تحدث للرحم، فإن عرض نزف دم، عولج بما قيل في بابه»[٢٤].

(٢٢) يذهب المستشرق إلى أن الصواب هو الكتف وليس الكف.

(٢٣) يسمي اليونان هذا المبضع xaticcs (كاتياس). انظر سورانوس، الطبعة المشار إليها: ٢٨١.

(٢٤) المرجع المذكور: ١٦٥٢-١٦٥٤.

إن نص ابن سينا هذا مستخلَص بكل تفاصيله من القسم الخامس والأربعين من كتاب سورانوس الإفسي وعنوانه «في استخراج الجنين وتفتيته»[٢٥]. إلا أنه ليس من المحتمل أن يكون ابن سينا قد مارس بنفسه عمليات الولادة؛ إذ إن كبار أطباء الإسلام غالبًا ما كانوا يختصون بالأمراض الداخلية تاركين أعمال الجراحة والعظام لأهل الجبارة والجراحين وفن التوليد للقوابل؛ وإن كانوا يُجيدون، في الوقت نفسه، توجيههم بواسطة مؤلفاتهم على المستوى النظري. ولعله من الواضح أن يكون ابن سينا قد وقع على ترجمة عربية جيدة لسورانوس في طب النساء، وإن كنا نجهل من قام بهذه الترجمة ومتى. وإذا كان ابن سينا قد حدّد لفصله عنوان «تدبير لبعض القدماء..»، فإن ذلك يدفعنا إلى افتراض أنه لم يغترف معلوماته من سورانوس فحسب، وإنما كذلك من مصادر ثانوية أخرى. مهما يكن الأمر، إن هذا الفصل يُعدّ كاملًا بقدر ما نتمنى أن يكون، نظرًا للوسائل العلاجية المحدودة في هذه الحقبة البعيدة. ولقد وجدنا لدى مايرشتينج[٢٦] استنساخًا لجمجمة قديمة مكسورة قد تم إعادة تكوينها وفقًا لجزء قد وصل إلينا بعد أن تم العثور عليه في آثار مدينة إفس؛ مسقط رأس سورانوس.

فصل في إخراج المشيمة

إن هذا الفصل بالغ الطول. ويعد أبسط علاج فيه استخدام مُعطِّس يناط به إخراج المشيمة (Placenta) بواسطة العطس، فإذا ظهرت المشيمة يجب الإمساك بها، وتمديدها برفق حتى لا تتمزق. وإذا كان احتباسها راجعًا إلى تقلص فتحة الرحم، يجب توسيع هذا الأخير بواسطة الإصبع مع استخدام بعض الزيوت والمواد الدهنية. ويقع هذا التدخل اليدوي على عاتق القابلة. ويذكر ابن سينا في هذا الصدد عددًا هائلًا من الأدوية مثل المعطسات والزيوت والفرزجات التي توضع إلى أسفل البطن بغرض تليين المشيمة واستخراجها برفق شديد، ومن غير جذب عنيف حتى لا يكون ذلك سببًا في انقلاب الرحم. وإذا لم ينجح الأمر يجب استخدام البخور عدة أيام لحلّ

(٢٥) Sorani Ephesii, Liber de muliebribus affectionibus. Ed. latine et interpr. F. Z. Ermerins. Trajecti ad Rhenum 1859. p. 286-294.

(٢٦) Th. Meyer-Steineg, Chirurgische Instrumente des Altertums. Jena 1912.

المشيمة، وفقًا لمؤلف قديم، بواسطة أنبوب يولج في الفرج، وبواسطة أيضًا ضمادات تُشد إلى أسفل البطن.

فصل في منع الحبل (وسائل منع الحمل)

هذا الفصل (رقم ١٧) جد مفيد. ومن ثم، سنقدم له ترجمة كاملة: «الطبيب قد يفتقر في منع الحبل في الصغيرة المخوف عليها من الولادة التي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف، فإن ثقل الجنين ربما أورث شقاق المثانة، فيسلس البول، ولم يقدر على حبسه إلى آخر العمر. ومن التدبير في ذلك أن يؤمر عند الجماع أن يتوقّى الهيئة المحبّلة التي ذكرناها، ويخالف بين الإنزالين، ويفارق بسرعة، ويؤمر أن تقوم المرأة عند الفراغ، وتثبت إلى خلف وثبات إلى سبع وتسع، فربما خرج المنيّ، وأما الوثب والطفر إلى قدّام، فربما سكّن المنيّ. وقد يعين على إزلاق المنيّ أن تعطس. ومما يجب أن تراعيه أن تحتمل قبل الجماع وبعده بالقطران، وتمسح به الذكر، وكذلك بدهن البلسان، والإسفيداج، وأن تتحمل قبل وبعد بشحم الرمان والشبث. واحتمال فقّاح الكرنب، وبزره عند الطُّهر، وقبل الجماع وبعده قوي في ذلك، وخصوصًا إذا جعل في قطران، أو غمس في طبيخ، أو عصارة الفوتنج، واحتمال ورق الغرب بعد الطهر في صوفة، وخصوصًا إذا كان مع ذلك مغموسًا في ماء ورق الغرب، وكذلك شحم الحنظل، والهزارجشان، وخبث الحديد، والكبريت، والسقمونيا، وبزر الكرنب أجزاء سواء، يجمع بالقطران ويحتمل واحتمال الفلفل بعد الجماع يمنع الحبل، وكذلك احتمال زبل الفيل وحده، أو مع التبخر به في الأوقات المذكورة. ومن المشروبات أن يسقى من ماء الباذروج ثلاث أواقي، فيمنع الحبل، وكذلك دهن الحلّ إذا طلي به القضيب سيّما الكمرة، ويجامع، فإنه يمنع الحبل، وكذلك ورق اللبلاب إذا احتملته المرأة بعد الطهر منع الحبل»[٢٧].

وترجع فكرة خطورة حمل النساء ذات البنية الضعيفة إلى ضيق الحوض لديها، وهو العائق الأكبر أمام الحمل. إلا أن العصور القديمة والوسطى لم تكن على دراية دقيقة بمقاييس الحوض

(٢٧) المرجع المذكور: ١٦٥٥-١٦٥٦.

وعلاقتها بسهولة الحمل. كما أن أطباء اليونان قد عرفوا العديد من الأدوية المانعة للحمل والمجهضة، وقد استعار منها ابن سينا الكثير.

فصل في الرحا (الحمل الكاذب)

يحمل الفصل التالي (رقم ١٨) عنوان «في الرحا» بالعربية، أي «على الرحا». وكان يفهم من هذا المسمى (باليونانية Mylé وباللاتينية Mola) نوع من ورم أو تضخم الرحم يشبه الحمل. ولربما يعني ذلك، على الأخص، أورامًا ليفية أو عضلية، وقد يعني ذلك أيضًا أورامًا في المثانة وتوابعها. وسوف نقوم بترجمة الجزء الأول من هذا الفصل، وهو الذي يعنينا في وصف أعراض هذه الأورام.

يقول ابن سينا: «إنه ربما تعرض للمرأة أحوال تشبه أحوال الحبالى من احتباس دم الطمث، وتغير اللون، وسقوط الشهوة، وانضمام فم الرحم، وربما كان مع صلابة ما، وربما كان فيه شيء من الصلابة في الرحم كلها، ويعرض انتفاخ الثديين وامتلاؤهما، وربما عرض تورّمهما، وتحس في بطنها بحركة كحركة الجنين، وحجم كحجم الجنين ينتقل بالغمز يمنة ويسرة، وربما بقيت الصورة كذلك سنين أربعًا أو خمسًا، وربما امتدت إلى آخر العمر ولم تقبل العلاج، وربما عرض لها كالاستسقاء، وانتفاخ البطن! ولكن إلى صلابة، لا إلى طبلية تصوّت صوت الطبل...»[٢٨]. ويقدم لنا ابن سينا، بعد ذلك، تصوره لنشأة هذه الأورام التي يسببها احتباس الطمث والدم و«فضلات» الهضم التي تحدث انتفاخًا، وهو يشير إليها بلفظة «مولى» (Mylé) اليونانية، كما يذكر اسمها بالفارسية «باذدروغين»[٢٩]. ثم يعمل، بعد ذلك، على تحديد الفرق في التشخيص بين «المولى» والحمل الحقيقي؛ إذ إن من أهم أعراض المولى الآلام التي تشبه تقلصات المغص، وعلاجها عجائن التمر (التمري) ودهان البطن، والعمل أحيانًا على حل الرحا واستئصالها.

ولقد تم وصف «المولى» في المجموعة الإبقراطية، كما ذكرها جُلُّ أطباء اليونان في الحقب التالية. ولقد أحسن ابن سينا هذا الوصف. ولعل الجديد، الذي أتى به، هو إحساس الحامل بما يشبه حركة الجنين، بينما يؤكد أطباء اليونان، على العكس، غياب هذه الحركة في تشخيصاتهم.

(٢٨) المرجع المذكور: ١٦٥٦.

(٢٩) لا يوجد هذا الاسم، وفقًا للمستشرق، في القواميس الفارسية، ويقول إنه يمكن ترجمته بالانتفاخ الكاذب (الامتلاء بالرياح).

فصل في عسر الولادة

يشمل هذا القسم مجموعة من الفصول التي سنقدم فيما يلي عناوينها. ففي الفصل الأول، وهو بالغ القصر (رقم ٢٠) يصف لنا ابن سينا الوضع العادي للجنين، وهو الخروج على الرأس؛ وإن كان يُعدّ الخروج على الرجلين عاديًّا شريطة ألا يحدث ميل في رأس الطفل عند المحاذاة. وفي الفصل الحادي والعشرين وعنوانه «في عسر الولادة»، يقدم لنا ابن سينا أسبابًا عديدة تخص الأم، مثل الضعف العام إثر المرض أو الحياء والحساسية الشديدة لديها، وكذلك السمنة الشديدة وضيق المأزق (الفرج). أما من جانب الطفل فيذكر اختلاف وفوارق القامة، وكبر الرأس وضخامة الجسم؛ وإن كان صغر المولود الشديد لا ييسر، بدوره، خروجه العادي. بالإضافة إلى ذلك، هناك أسباب أخرى كتعدد حالات الحمل وتشوهات الجنين (المولود ذو الرأسين)[٣٠]، ووفاته قبيل الولادة نظرًا لانعدام حركته المساعدة على خروجه. ثم هناك الأوضاع الخاطئة للجنين كالخروج على الرجل، أو اليد والجنب أو منطويًا. ويعدد ابن سينا، بعد ذلك الأسباب المعوقة للوضع والمتصلة بطبيعة الرحم نفسه مثل صغر حجمه أو تيبسه وقلة زلقه، وكذلك تقلص فتحته بسبب ضيق شديد في الخلقة أو ندبات ناجمة عن جروح ملتئمة، أو بسبب تشققات والتهابات أو إصابة بالبواسير أو بداء الفلغموني (التهابات صديدية)، أضف إلى ذلك تصلب أو رقّة أغشية البويضة، الأمر الذي ينجم عنه انخراقها وخروج «الرطوبات» قبل موافاة الجنين أوان خلاصه.

ومن الأضرار التي يذكرها أيضًا: إصابات المثانة، واحتباس البول، والإمساك المتكرر، والمغص، والبواسير، وتشققات الشرج. بيد أن ابن سينا يضيف إلى ما سبق مجموعة أخرى من الأسباب التي تبدو لنا غريبة مثل البرد الشديد أو الرياح الباردة، وهو ما يدفعه إلى الزعم بأن الولادة غالبًا ما تكون عسيرة في المناطق الشمالية، نظرًا لانقباض البطن من البرد، وبأن الحرارة الشديدة سيئة الأثر على الحمل لما تسببه من استرخاء. كما أنه ينصح الحامل بعدم الإكثار من التعطر في فترة ما قبل الوضع، لأن ذلك يزيد من القوة الجاذبة للرحم على حساب القوة الطاردة له. ولعله من الطريف، في هذا الصدد ملاحظة أثر هذه الفكرة «العلمية» لأطباء العصور القديمة

(٣٠) هذا مثال يضربه المستشرق لتشوه الجنين.

في المعتقدات الشعبية الحديثة في الشرق؛ إذ يُحظر في مصر وسوريا والجزائر وغيرها على النساء المتعطرات الدخول على النفساء، اعتقادًا بأن هذا الأمر يجلب النحس على الأم وطفلها. ومن أضرار البرد، السُّعال المتولد عنه ونفث الدم (Hémoptysie)، ويُعد السُّعال ضارًّا بالرحم والجنين على السواء.

أما الفصول التالية (من الفصل الثاني والعشرين حتى الخامس والعشرين)، فيقدم فيها ابن سينا تشخيصًا للوضع العسير وتدبيره، وكذلك يقدم عددًا غفيرًا من الوصفات، بدءًا من إدامة الاستحمام وتدليك العانة والفرج بالزيوت المعطرة إلى شرب الحامل المتعسرة لمنقوع حب السفرجل على الريق، وتبخير العضو بغية خروج الطفل. كما ينصح باستخدام الشحوم والأدهان لتيسير انزلاق الجنين. أما الوضع المألوف للمرأة عند الولادة، فهو قعودها على الكرسي، وهو جهاز كان معروفًا في مصر القديمة. ويوصي ابن سينا البدينات من النساء بالانبطاح وليّ الركبتين تحت البطن على شاكلة ذوات الأربع. كما يتطلب الأمر، عند الضرورة، توسيع العضو بالأصابع، وهو ما يناط بالقابلة عمله. وإذا كانت الأغشية شديدة المقاومة فيجب شقها بالأظافر أو بمبضع على هيئة ورقة الآس (الآلة الآسية)، وذلك حتى لا ييبس عضو المرأة الذي يتطلب، في هذه الحال، دهنه بالزيوت والشحوم المذابة.

وفي الفصل الرابع والعشرين، يتحدث ابن سينا، بوجه خاص، عن علاج عسر الولادة. ومن ثم، يقترح في البداية ضروبًا من التدابير العامة والأغذية، مثل إنعاش المتعسرة بالروائح الطيبة، وإطعامها الأغذية الخفيفة على شاكلة النيمرشت (البيض نصف المسلوق) وتدفئة غرفتها في الشتاء، ودهن بطنها وأعضائها التناسلية بالأدوية المهدئة، وإجلاسها أحيانًا على أطرافها الأربعة حتى تعطي للجنين دفعةً، وكذلك حملها على استخدام الشفايات وحقن الفرج والمباعدة بين فخذيها. وحينما ينفتح رحمها وتسيل منه الرطوبات يُفتح فرجها باللولب حتى يتم تمدد فتحة الرحم وانفتاحه. كما يجب على الماخض أن تجلس على كرسي الولادة إلا في الحالات التي سبق ذكرها؛ حيث يجب عليها أن تحافظ على وضع الانبطاح والبروك، وعلى القابلة أن تدهن، طوال زمن الولادة المتعسرة، عضو الماخض على مقربة من رأس الطفل بالزيوت والشحوم، وهي طريقة غير مطهرة بالتأكيد.

وبعد أن يقدم لنا ابن سينا مجموعة من الأدوية الميسرة للولادة، يقول لنا في جملته الأخيرة: «وقد ذكر الحكماء الأقدمون في إخراج الجنين حيلة في باب الحركات نحن تركناها لقلة الرجاء معها»[٣١]. ولا شك أن هذه الإشارة متصلة بما أوصى به بعض أطباء اليونان من هزّ الجسم هزًّا قويًّا، وإجبارها على السير وهبوط درجات السلم خلال الحمل والولادة، وهي ممارسات قد ذكرها سورانوس[٣٢] الذي لم يتوانَ عن إدانتها أقل مما فعل ابن سينا نفسه. وفيما عدا ذلك، فإن توصيات الطبيب العربي الفارسي الكبير مطابقة لتوصيات سورانوس.

تنويعات علاجية

تقدم الفصول المندرجة بين الخامس والعشرين والتاسع والثلاثين من القسم الثاني خطوات علاجية مختلفة لحالات الوضع غير الطبيعي ولمرض الأم ووسائل العناية التي يجب توفيرها للنساء. وكل هذه الفصول بالغة القصر باستثناء الفصل الحادي والثلاثين الذي يضم مجموعة من الوصفات الهادفة إلى تسهيل الولادة المتعسرة.

ففي الفصل الخامس والعشرين نقرأ: «تدبير من خرج جنينها الرجل قبل الرأس: يجب أن تتلطف، وترد الرجل وتقلبه باللطف حتى يستوي قاعدًا، وتشيل ساقيه قليلًا قليلًا حتى ينزل رأسه. فإن لم يمكن شيء من ذلك، شدّ الجنين بعصابات وأُخرج. فإن لم يمكن إلا القطع فُعل ذلك على قياس ما قيل في الجنين الميت»[٣٣].

وفي الفصل السادس والعشرين: «تدبير من يخرج جنينها على جنبه» يقول ابن سينا: «هو قريب من ذلك، [أي شبيه بالفصل السابق]، ويستوي بالرفع إلى فوق، وبالإجلاس والنكس بالرفق»[٣٤].

(٣١) المرجع المذكور: ١٦٦٠.

(٣٢) Sorani Ephesii, Liber de muliebribus affectionibus, ch. 64: TIάνταςσέ τούςτοιούτους xατασε-αμούς άλοσοχιμαστέον (كل هذه الارتجاجات مدانة).

(٣٣) المرجع المذكور: ١٦٦٠.

(٣٤) المرجع المذكور: ١٦٦٠.

وفي الفصل السابع والعشرين يوصي لمن «تلد وفي رحمها ورم» باستخدام الأدهان للبطن والمسالك.

أما الفصل الثامن والعشرون فجدّ شيق، وإليكم نصه: «تدبير من تعسر ولادها بسبب عِظم الصبي» يجب أن تجيد القابلة التمكن من مثل هذا الجنين، فتتلطف في جذبه قليلًا، فإن أنجح في ذلك، وإلا ربطته بحاشية ثوب، وجذبته جذبًا رفيقًا بعد جذب. فإن لم ينجح ذلك، استعملت الكلاليب واستخرج بها. فإن لم ينجح ذلك أخرج بالقطع على ما يسهل، ويدبر تدبير الجنين الميت

يتبين لنا من هذا الوصف الناقص لعملية قلب الطفل حتى يتم استواؤه قاعدًا، أن القابلة هي التي كان يناط بها تنفيذها بواسطة المعالجات الداخلية، وإن كان ابن سينا يوجه كلامه أحيانًا إلى الطبيب مباشرة. وإنه لمن المرجح أن الطبيب كان يقف بجانب القابلة لتوجيه تدخلاتها شفاهًا. إلا أن ابن سينا لا يتحدّث عن المعالجات الخارجية، التي كان يلجأ إليها أطباء اليونان، سواء بمفردها أو مصحوبة بالمعالجات الداخلية. من ثم، نرى أن العرب لم يكونوا يؤثرون دائمًا قاعدة أطباء اليونان في قلب الجنين على الرأس. أضف إلى ذلك، أننا نلاحظ، لأول مرة في عملنا، ذكرًا لاستخدام الكلاليب (Forceps)، وهي كانت تستخدم، كما سبق ملاحظة ذلك، في انتزاع عظام الجنين الميت. ولقد كان من الاستحالة بمكان أن نقع لدى مؤلفين أُخر على أية إشارة إلى وصف أو استخدام هذه الكلاليب عند العرب. كما أن الأمر غير وارد عند اليونان الذين لم يستخدموا إلا بعض الخطاطيف في انتزاع الجنين الميت أو الحي.

يحمل الفصل التاسع والعشرون هذا العنوان: «تدبير من تعسر ولادها بسبب موت الجنين، أو سوء شكله الذي لا يرجى معه حياته»[٣٥].

وفيه يشير ابن سينا إلى الأجنة المصابة باستسقاء الرأس، إذ إنه يوصي، خارج عملية التفتيت والانتزاع بالصنانير، بثقب (شرخ) الجمجمة وإخراج سائل الدماغ.

(٣٥) المرجع المذكور: ١٦٦١.

وفي الفصل الثلاثين، الذي لا يتجاوز السطرين، يوصي ابن سينا بمعالجة إغماء النفساء برش وجهها بالماء البارد، وتقويتها بحساء اللحم والنبيذ المعطر.

أما في الفصل الحادي والثلاثين، وهو أطول فصول هذا القسم، فينصح باستخدام الأدوية المسهلة للولادة، ومنها، على سبيل المثال، قشور الخيار المسهِّلة، والخروع، وسقاء الحلتيت، وطبيخ ورق الخطمى (Althée) وغير ذلك. وينقل ابن سينا بعد ذلك وصفات مكوَّنة من الحبوب والمعاجين والضمادات وعمليات التدليك والتبخير، كما يذكر بعض الأدوية الفاعلة بالخاصية (Sympathiques)، مثل أن يُعلق بفخذ الماخض حوافر الخيل والحمير أو صمغ الاصطرك (Styrax)، أو أن تمسك بيدها اليسرى مغناطيسًا. وليس من شك في أننا نرى هنا أنموذجًا للخرافات الحديثة، التي لا تنقصها حتى «المغناطيسية». وإن كان علينا أن نُنصف ابن سينا؛ إذ إنه لا يقدم أيًّا من هذه التوصيات إلا مسبوقة بكلمة «يقال». لقد استمدها إذن من الطب الشعبي الذي ربما وصل إليه عن طريق القابلات.

وفي الفصل الثاني والثلاثين الخاص بوسائل العناية بالمولود «تدبير المولود كما يولد»، يُحيلنا إلى الجزء الأول من القانون، ثم يحدثنا في الفصل الثالث والثلاثين عن «أحوال النفساء»، فهي لا يجب أن تظل راقدة أكثر من ثلاثين يومًا بعد ولادة الذكور، ولا أكثر من أربعين يومًا بعد ولادة الإناث. أما الأمراض التي تهدد النفساء فهي النزيف، واحتباس الدم، وحمّى النفاس المصحوبة بأورام حارة على شاكلة الخراجات والحُمرة والفلغموني[٣٦]. كما يُصيبها خاصةً بعد الولادة المتعسرة، انتفاخ البطن وربما الموت. ويُعد دم النفاس أشد سوادًا من دم الطمث.

في الفصل الرابع والثلاثين عن «تدبير كثرة دمها» يوصي ابن سينا بأن تعصَّب يدا النفساء، وأن توضع على بطنها ضمادات مبلَّلة بالخل، وأن تحمل بشيافات من الجلنار والورد والكندر بشراب المغص ومواد أخرى قابضة. إلا أنه يحذِّر من الأدوية الكاوية الضارة بالرحم. ويقدم لنا،

(٣٦) التهابات صديدية تحت الجلد.

أخيرًا، وصفة تنتمي إلى الخرافة: «ومما له خاصية في ذلك على ما قيل، تعليق زبل الخنزير في صوفة، وتعلق على فخذها...»[٣٧].

وفي الفصل الخامس والثلاثين عن «تدبير قلة دمها» يوصي ابن سينا بإثارة العطس لدى النفساء لإدرار دم الطمث، وكذلك التبخير (التدخين) بعين السمكة وحافر الفرس أو الحمار، وفي حالة الفشل، باللجوء إلى فصد الصافن أو عرق مأبض الركبة.

في الفصل السادس والثلاثين «تدبير الحمّيات»، ينصح باستخدام ماء الشعير أو الرمان لتجديد دم الطمث، وكذلك بفصد الصافن.

في الفصل السابع والثلاثين «تدبير انتفاخ البطن»، يحبذ أربعة أدوية بسيطة مثل الصعتر والمصطكي[٣٨].

في الفصل الثامن والثلاثين «تدبير أوجاع الرحم»: «تجلس في الماء الفاتر، وتمرخ مواضعها بدهن البنفسج العذب مفترًا».

وفي الفاصل التاسع والثلاثين «تدابير جراحها»: «تعالج بالمرهم الأبيض[٣٩] ونحوه من المراهم الصالحة للجراحات على الأعضاء العصبية» (أو الوترية)[٤٠].

لقد تبين لنا أن الفصول السابقة لا تقدم بعامة ثبتًا كاملًا بمعارف اليونان والعرب، فيما يخص علاج عسر الولادة والنفساء؛ وهي موضوعات تستكملها المقالتان التاليتان. كما يجب أن نشير هنا إلى ظاهرة لم تكن معروفة حتى الآن، وهي استخدام الكلّابات من قِبل قابلات العصر الإسلامي.

(٣٧) المرجع المذكور: ١٦٦٣.
(٣٨) المرجع المذكور: ١٦٦٤. في نص ابن سينا نجد بقية الأدوية الموصوفة، وهي: سقاء الدحمرثا والكلكلانج والسكنيج... (المترجم)
(٣٩) الشمع بالزيت مع بياض البيض، انظر المرجع نفسه، هامش صفحة ١٦٦٤. (المترجم)
(٤٠) المرجع المذكور: ١٦٦٤.

تلي ذلك المقالة «الثالثة»[٤١] التي تشمل في النص العربي الصفحات ٥٨٥-٥٩٤، وتنقسم إلى ثمانية وعشرين فصلًا. وتحمل هذا العنوان: «في سائر أمراض الرحم سوى الأورام وما يجري مجراها». وتتحدث الفصول الأربعة الأولى عما يلي:

فصل في أحكام الطمث (فيزيولوجيا وباثولوجيا الطمث)

يذهب ابن سينا إلى أن زمان الطمث يتراوح عادةً بين عشرين وثلاثين يومًا، ويعد أي تبكير أو تأخير فيه أمرًا غير طبيعي. ولكن الطمث المتأخر هو الضار حقًّا، لما يسبِّبه من أمراض، كما أن أي زيادة في الطمث تشكل خطرًا على المرأة، وتسبب لها أمراضًا أخرى مثل الضعف والعقم ووهن وليدها في حالة الحمل. إلا أن المؤلف يخشى، بصفة خاصة، حالات انحباس الطمث أو انقطاعه، لما يسببه ذلك من أمراض الامتلاء والأورام وأوجاع الرأس وغيرها في الأعضاء، وكذلك ظلمة الإبصار وكدر الحواس والحمّيات وامتلاء أوعية المنيّ، الأمر الذي يزيد من شبق المرأة وقلة عفتها مع استحالة حملها في الوقت نفسه، نظرًا لفساد رحمها ومنيّها. كما يسبب ذلك انسداد الرحم وضيق التنفس والاختناق وتضاعف خفقات القلب والإغماء، وأحيانًا الوفاة. وربما أصيبت المريضة باحتباس البول أو الإسهال ونفث الدم والقيء المصحوب بالدم، خاصة إذا كانت من الأبكار. أما اختفاء الطمث فيحدث بدءًا من سن الخامسة والثلاثين وحتى الخمسين، و«ربما أدى احتباس الطمث إلى تغيير حال المرأة إلى الرجولية»[٤٢].

ويقدم ابن سينا في الفصل الثاني شرحًا نظريًّا لحالات غزارة الحيض ونزف الرحم، اعتمادًا على بعض الافتراضات المعروفة في عصره، والمستمدة من الطب اليوناني. على هذا النحو يذكر لنا ضعف الرحم وأوردته، وتغير حال الدم بوجه عام، وكذلك قروح أو بواسير الرحم وتشقق مخاطه والحكة، وانفتاح أفواه عروقه أو تمددها؛ إضافةً إلى عسر الولادة والتعرض لضربة أو سقطة، وسوء مزاج الدم إما لحدته أو حرارته الزائدة، وإما لرقته ولطافته أو لكثرته المسبِّبة لفساده. إن هذا الوضع قد يُحدث لدى المرأة نوعًا من الضعف المزمن (الأنيميا)، وقد تصل نتائجه إلى الاستسقاء

(٤١) تشمل هذه المقالة في نسختنا المرجعية الصفحات ١٦٦٥-١٦٧٧. (المترجم)
(٤٢) المرجع المذكور: ١٦٦٥.

والصفراء وحمّى المرارة؛ كما تفقد المريضة شهية الطعام نظرًا لصعوبة الهضم، وقد تتعرض لآلام مبرحة في الصلب بسبب توتر أو تمدد أعصاب هذا الموضع، ويزعم ابن سينا أن حالات نزف الرحم تظهر، على الأكثر، مع تكاثر الأمطار.

أما الفصل الثالث فيعالج العلامات المرتبطة بأسباب النزيف، وذلك وفقًا لاعتبارات نظرية في الأغلب. مثال ذلك: أعراض النزيف الذي يسببه الامتلاء، وهي احتقان الدماغ وآلام الرحم، وكذلك الطابع الصفراوي أو السوداوي أو البلغمي للنزف وفقًا للون الدم الذي تم جمعه في خرقة بيضاء: أصفر كان أم أسود. أما النزف الذي تسببه قروح الرحم فهو غالبًا ما يكون مصحوبًا بآلام وسيلان صديدي، أما النزف الناتج عن «الآكلة» (الغنغرينا) فيخرج مترسبًا كالدُّردي[٤٣]. وعلامات النزف الناتج عن البواسير العسر الشديد للحيض وأوجاع في الرأس والأحشاء والكبد والطحال، وإن كانت هذه الأخيرة غالبًا ما تزول مع سيلان الدم من البواسير.

ويتناول الفصل الرابع، وهو طويل بعض الشيء، موضوع «علاج نزف الدم». وإنه لمن نافلة القول أن ابن سينا ينحو هنا منحى عصره في وصف العديد من الأدوية لعلاج الحالة العامة، وتصويب مزاج المريضة أكثر من اهتمامه بعلاج الحالات الموضعية الكثيرة. ولعل ما يبدو لنا معقولًا في هذا الصدد هو وصفه لنظام غذائيّ مقوٍّ يقوم على حساء اللحم. ولا يتورع ابن سينا المسلم عن التوصية بتناول النبيذ القويّ لاستثارة القوى المستنزفة. كما ينصح بالاستخدام الموضعي لكل ضروب الأدوية القابضة المعروفة في عصره، وذلك بدءًا من جفت البلّوط المسحوق حتى الزاج في صورة دهانات أو فرزجات؛ وهو يوصي باستخدام الأفيون أحيانًا، خاصة عند اشتداد الآلام.

أما فيما يخص ما يدين به ابن سينا لطب النساء اليوناني، يمكننا القول بأن الوصف التفصيلي الذي قدمه اليونان لعسر الطمث وآلامه (Dysménorrhée) يفوق بكثير وصفه له، إذ إنه اهتم، بصورة أدق، بغزارة الحيض وسيلان الرحم وعلاجهما.

وفي الفصلين الخامس والسادس، يتحدث ابن سينا عن:

(٤٣) الدُّردي: هو الكدر الراسب في أسفل الزيت ونحوه. (المترجم)

فصل في قروح الرحم

يرد ابن سينا هذه القروح إلى تكوين المريضة وإلى «السيلانات الحارة» والخراجات والحوادث العارضة ومشاكل الولادة المعقدة، كما يرى أن التقرحات قد تقع في عمق الرحم أو في عنقه، وقد تُحدث أو لا تُحدث إفرازات متعفنة وأورامًا وأُكالًا وخراجات. أما التشخيص فيعتمد على الطابع المتغير للسيلان الذي يكون تارة مصحوبًا بدم، وتارة بصديد وآلام وحمى مع قشعريرة.

وفي الفصل السابع والفصلين الثامن والتاسع، يحدثنا ابن سينا عن تعفن الرحم وتآكله، إلا أن مصطلح «الأُكالة» الوارد هنا يمكن ترجمته بالغنغرينا، وإن كنا كما هو واضح، أمام نوع آخر من تقرحات مخاط الرحم. ويقوم تشخيص ابن سينا لهاتين الإصابتين على العوارض التالية: السيلان الحاد والحريف، وطبيعة الآلام التي تحس بها المريضة. كما يستبعد تشخيصه احتمال سرطان الرحم نظرًا لغياب التصلّب، إذ إن السرطان مرض عضال ودائم، بينما الأكالة قابلة للعلاج. ويعتمد العلاج المقترح، وهو موضعي بصفة خاصة، على الأدوية المطهرة للقروح والمساعدة على التئامها، مثل المراهم المتخذة من المرتك والإسفيذاج والأنزروت ممزوجة «بدهن الورد والشمع».

أما الفصل العاشر فعنوانه «في تدبير المفتضة من النساء» وفيه توصى المرأة، إذا عانت من الآلام والنزف، بالجلوس في مياه قابضة، مع إيلاج قطع من الصوف المدهون بالزيت والشمع بغرض تخفيف آثار الالتئام. وفي حالة تكوّن القروح، يجب استخدام الأدوية المطهرة، وخاصة الطين المختوم للتخلص من الفضلات.

تلي ذلك ثلاثة فصول عن «شقاق الرحم»، يتحدث فيها ابن سينا عن قروح الرحم الصغيرة بقدر ما يتحدث عن تشققات الرحم وتمزقات العجان (Périnée) الباقية في هيئة ثآليل بعد الولادة. ويتم التشخيص هنا، أحيانًا على أساس الآلام التي تحدث للمرأة أثناء الجماع. ويتلخص العلاج هنا في استخدام الغسول القابضة والمراهم والشحوم والزيوت.

ويحمل الفصل الخامس عشر عنوان «في حكة الرحم وفريسيموس النساء»[٤٤]، ويتناول فيه ابن سينا بوجه خاص حكة الفرج وشراهة النكاح لدى المرأة، إلا أن الأعراض التي يقدمها غير واضحة بشكل كافٍ؛ إذ إنه يُعنى بالأحرى بالأسباب الافتراضية لهذه الآفة مثل الأخلاط الصفراوية المصحوبة بسيلان حاد ومالح و«بورقي»[٤٥]. ويوصي لعلاج ذلك بالفصد واستفراغ الأخلاط واستخدام الأدوية المبردة.

ويعالج الفصلان السابع عشر والثامن عشر «ناسور الرحم»[٤٦]. ويبدأ الفصل الأول منهما على النحو التالي: «قد يعرض في الرحم [ناسور]، وربما جاوز الرحم، وظهر فيما يجاوره من الأعضاء، حتى يفسد عظم العانة، ويعفنه، وعنق الرحم. وربما أدّى إلى حلق شعر العانة، فربما ثقبه ثقبًا صغارًا، وربما أخذ عن جهة العانة، فاتجه إلى ناحية المقعدة وعضلها، فبعضه يكون حينئذ يدرك من ظاهر الرحم، وبعضه يكون في باطن الرحم، وقد يكون في كل جانب من جوانب الرحم. وما كان منه في عنق الرحم لا يمكن أن يعالج، وكذلك المنتهي إلى المثانة وفمها، وإلى كل عضو عصبي. والمنتهي إلى عضلة المثانة وسائر ذلك، فله علاج..»[٤٧]. إننا نلاحظ هنا أن الإشارة إلى الناسور ليست واضحة، وإن كان ابن سينا يقصد، بوجه خاص، ناسور الرحم والمهبل والمثانة الذي يتطلب حاليًا عمليات جراحية تقويمية لم تكن متوفرة في عصره. وهو يتحدث فعلًا، عن عمليات، ولكنها تقوم فقط على البط (Incision) والبتر (Excision) فيما يخص الأجزاء الميتة. ولقد لاحظ ابن سينا أن هذه العمليات غالبًا ما تعقبها لدى المصابة عصبية وكزاز (رعدة) وتقلصات وانقطاع في الصوت. خلا ذلك، ينصح ابن سينا باستخدام المقويات لمداواة الرحم.

(٤٤) فريسيموس: هذه الكلمة تعريب للمصطلح اليوناني (Priapismos)، وتعني، عند الرجل، الانتصاب الممتد والمؤلم من غير إثارة جنسية. وشراهة النكاح عند المرأة هي «النيفومانيا» (Nymphomanic). (المترجم)

(٤٥) بورقي: من البورق وهو النطرون. (المترجم)

(٤٦) يقول المستشرق بأن نسخة بولاق العربية تحتوي على خطأ مطبعي يتكرر مرتين، وهو استخدام كلمة «باسور» بدلًا من «ناسور». ولكن النسخة اللبنانية، التي نستخدمها، والمطابقة لنسخة بولاق، تكرِّر الخطأ نفسه، إذ يحمل فيها الفصل المذكور عنوان «فصل في باسور الرحم». المرجع المذكور: ١٦٧٣. (المترجم)

(٤٧) المرجع نفسه: ١٦٧٣.

يجدر بنا أن نتذكر أن ابن سينا يستخدم، على شاكلة أطباء اليونان، مصطلح الرحم للدلالة أحيانًا على الرحم نفسه، وأحيانًا على المهبل أو الفرج. من ثم، علينا أن ندرك أنه يعني، في فصله عن الناسور، كل أنواع الناسور التي تصيب الأعضاء التناسلية والمسالك البولية للمرأة. على كل حال، نحن لم نستطع أن نجد في الطب اليوناني فصلًا مناظرًا لفصله هذا. فلعله قد استقى هذه المعلومات من مصادر يونانية أخرى ليست في حوزتنا، أو من خبرة قوابل عصره.

في الفصل العشرين، بالغ القِصر، يتناول ابن سينا موضوع «ضعف الرحم»، وهو يشير هنا إلى ما يسميه «سوء المزاج» المسبب لبرودة وعقم المرأة، والذي يظهر من خلال آلام الحيض وكثرة سيلانه؛ أما علاجه فهو علاج هذا المزاج نفسه.

وفي الفصلين التاليين، نحن بصدد آلام الرحم، ويرد ابن سينا أسبابها إلى سوء المزاج وإلى الرياح التي تمدد الرحم وإلى أنواع الرطوبة التي تتخلل الأرحام مثل تلك التي تعرض في الأمعاء، وتسبب المغص. ومن أسباب أوجاع الرحم أيضًا الأورام السرطانية خاصة، وكذلك قروح الرحم، وهي أوجاع قابلة للانتشار إلى الكلى والعانة والأربيتين والمعدة والحجاب الحاجز والرأس خاصة أو اليافوخ (Sinciput)، وقد تنتقل هذه الآلام، في غضون عشرة شهور، إلى الخواصر والأوراك حيث عرق النسا.

وفي الفصلين الثالث والعشرين والرابع والعشرين، نحن بصدد «سيلان الرحم». ويرد ابن سينا أسبابه إلى تعفن الطمث وسيلان منيّ المرأة الذي يشبه مني الرجل، وعلة ذلك هو رقة المني الزائدة أو حكة في الرحم، أو استرخاء أوعية الحوض. ويُفقد هذا السيلان شهية المرأة إلى الطعام، كما يكون سببًا في شحوب لونها وتورم جفونها. وقد يكون السيلان مصحوبًا بآلام أو غير مصحوب. أما العلاج، الذي يوصي به ابن سينا، فهو الغسول وحقن الرحم بعقاقير نباتية مثل طبيخ الإيرسا (Iris) والفراسيون (Marrube) الأقحوان (Pyréthre)، وتدليك الساقين والعضو بأدهان ومياه قابضة (مطبوخ فيها العفص وقشور الرمان).

وفي الفصول الأربعة الأخيرة، من الفصل الخامس والعشرين إلى الثامن والعشرين، يسترجع ابن سينا في شيء من التفصيل موضوع احتباس الطمث وقلته. وهو يبدأ بعرض نظري نمطي

لأسباب انقطاع الطمث، فيقسمها إلى عامة وخاصة، ويُفرغُها إلى تكوينية (غريزية) وحادثة، كما يردها إلى علل راجعة إلى المزاج سواء أكان حارًّا أو يابسًا أو رطبًا أو باردًا.. إلا أن حاصل هذا التأمل النظري لا يعنينا كثيرًا، إذ هو عبارة عن إدماج لنظريات جالينوس في نسق أقرب إلى الفلسفة منه إلى الطب. ومن ثم، نحن لا نقع فيه تقريبًا على ملاحظات، وما قلّ منها خاضع للجانب النظريّ. وفيما يخص أسباب انقطاع الطمث يذكر بدانة المرأة وإصابات الكبد. إذ إن هذا العضو الأخير، في اعتقاد القدماء، هو المعدّ للدم؛ وهو يسبب، في حالة إعداده لدم غليظ، يسبب اختفاء الطمث أو قلته.

وفي الفصل السادس والعشرين، يتحدث ابن سينا عن عواقب احتباس الطمث وتعقيداته. من ثم، يشير إلى انقباض الرحم واختناقه، وميله إلى جانب؛ وكذلك إلى الأورام الحارة (Métrite) التي تصيبه، وأورام الأحشاء والمعدة مع سوء الهضم، وإلى الأمراض العصبية كالصرع والفالج، وإصابات الرئة من السعال واختناق الأنفاس وأمراض الكبد وما ينتج عنها من استسقاء. غير أن المؤلف يخلط هنا بين العلة والأثر؛ إذ يذكر من بين أعراض احتباس الطمث، الأقرب منها إلى الذاتية كالإحساس بالثقل في الكلى والجانبين والعانة، وأوجاع المثانة مع حصر البول وآلام الرأس والعنق. إلا أن أهم ملاحظاته تنصب على حالات الذكورة عند النساء التي تعاني من احتباس الطمث وتظهر في صورة نماء شعر الجسم ونبات اللحية وتغير الصوت. وأحيانًا تعقب هذه التحولات وفاة مبكرة. وربما تبرأ المرأة في بعض حالات احتباس الطمث، كما تصبح قادرة على الحمل مرة أخرى.

وعلى سبيل العلاج يوصي ابن سينا بالحمامات الساخنة والباردة، وبفصد الوريد والأدوية الجالبة للدم إلى الأعضاء التناسلية. كما ينصح، على الأخص، بفصد الوريد الصافن بالفخذين وربطهما بالضماد. ويذكر، من بين الأدوية المدرة للدم في منطقة أسفل البطن، العرعر وريحانة الأرض (Dictame) وبقلة الملك (Fumeterre) والكاوشير (Opopanax) وطبيخ القرفة وحبات جالينوس الملينة (Hiéra picra). ويشير أخيرًا، في نهاية هذا القسم، أي في الفصل الثامن والعشرين إلى مجموعة من الوصفات.

أما بالنسبة للمقالة الرابعة المخصصة لطب النساء من كتاب القانون، فهي أكثر تفصيلًا وأكبر أهمية من المقالة الثالثة. وعنوانها: «في آفات وضع الرحم وأورامها وما يشبه ذلك». وتعالج الفصول الثلاثة من هذه المقالة الموضوعات التالية:

فصل في الرتقاء (اختناق عنق الرحم والفرج)

إن المصطلح التقني «الرتقاء» يعني في العربية «المرأة المسدودة». ويبدأ هذا الفصل على النحو الآتي: «الرتقاء: هي التي، إما على فم فرجها ما يمنع الجماع من كل شيء زائد عضلي، أو غشاء قوي، أو يكون هناك التحام عن قروح أو عن خلقة»[٤٨]. وقد يحدث الحمل عند بعض النساء وإن صعب خروج الطفل؛ وقد تهلك الأم وطفلها إذا لم يتم تدخل الجراح. وقد يحدث عند بعض آخر من النساء احتباس خطير للطمث. ثم يشرع ابن سينا في عرض بعض تصوراته حول إمكانية حمل الرتقاء مستشهدًا في ذلك بأقوال لجالينوس و«الفيلسوف» أرسطو اللذين ذهبا إلى حد القول بأن رائحة منيّ الرجل تكفي وحدها لإخصاب المرأة متى ما انصبّ منيّه بجانب منيها.

ويتناول الفصل الثاني طرائق العلاج: «علاج الرتقاء بالحديد لا غير، فإن كان الرتق ظاهرًا، فالوجه أن يخرق شفر الفرج عن الرتق، بأن يجعل على كل شفر رفادة [من الكتان] ويقي الإبهامين بخرقة، ويمد الشفران حتى ينخرق عما بينهما ويُستعان بمبضع محفي، فيشق الصفاق، ويقطع اللحم الزائد - إن كان تحت الصفاق - قليلًا قليلًا حتى لا يبقى من الزائد شيء... والفرق بين الصفاق واللحم الزائد، أن الصفاق لا يدمي، واللحم يدمي، ثم يجعل بين الشفرين صوفة مغموسة في زيت وخمر، وتترك ثلاثة أيام». كما يوصي ابن سينا باستخدام ماء العسل والمراهم، ويضيف: «وأما إن كان الرتق غائرًا، فالوجه أن يوصل إليه الصنارة، ويشق إن كان صفاقًا شقًّا واحدًا ليس بذلك المستوى، فربما ينال المثانة وغيرها، بل يجب أن يورب عن مكان المثانة ويقطع - إن كان لحمًا - قليلًا قليلًا، ويلزم القطع صوفة مغموسة في شراب قابض عفص، «ثم بعد ذلك يجلس في المياه المطبوخة فيها الأدوية المرخية، ثم يعالج بالمراهم الصالحة للجراح...»[٤٩]. وينصح ابن سينا

(٤٨) المرجع المذكور: ١٦٧٩.
(٤٩) المرجع المذكور: ١٦٨٠.

بتوقي الاندمال الخشن للجرح لما يسببه ذلك من خطورة في حالة الحمل، إذ لا يستطيع المولود، في هذه الحال، تجاوز حلقة الندوب. أضف إلى ذلك ما قد تسببه تشققات عنق الرحم أحيانًا من كزاز وتشنج وأمراض فتاكة.

ويقدم لنا ابن سينا وصفًا أكثر تفصيلًا لهذه العملية في الفصل التالي: «يُهيأ للمرأة كرسيّ بحذاء الضوء وتجلس عليه مع قليل استناد إلى خلف، وإذا استوت ألصق ساقاها بفخذيها مفحجتين، وجميع ذلك ببطنها، وتجعل يداها تحت مأبضيها، وتشد على هذه الهيئة وثاقًا، ثم يحاول الطبيب الشق للصفاق، والقطع للحم. وربما احتاج الطبيب إلى استعمال مرآة، خصوصًا فيما هو داخل. وإذا مددت الصفاق بالمراود والصنارات مدًّا لا ينزعج معه الرحم وعنق المثانة وصفاقها انزعاجًا يؤذي هذه الأعضاء أولًا بالمد، وثانيًا بما لا يبعد مع إبرازها بالمد، أن يصيبها من حد الحديد، والمرآة تريك ما تصنع من ذلك، وتعرفك ما صحب الصفاق الراتق من الأعضاء التي تجاوز هذا العضو من المثانة وغيرها، فإن أفرطت فأرسل ما مددته ليرجع ما امتد إليك مما لا يحتاج إليه، ثم أعد مد الصفاق الراتق بلطف، ثم شقه على تأريب لا ينال المثانة، ثم انظر في أول ما يشق، فإن خرج الدم يسيرًا، فانفذ في عملك بلا وجل، وإن كثر سيلان الدم، فشق قليلًا قليلًا يسيرًا يسيرًا، لئلا يعرض غشيّ، وصغر نفس. وربما احتيج إلى أن تترك الآلة الباضعة المسماة بالقالب فيها إلى الغد ملفوفة في صوفة مربوطة بخرق. وإذا كان الغد نُظر في قوتها، فإن كانت قوية عولجت تمام العلاج، وإلا أُمهلت إلى اليوم الثالث، ونزعت حينئذ الآلة، وتأملت حال الشق بالإصبع، تجعلها تحت موضعه، لتدلك على مبلغ ما يحتاج أن يشق من بعد. وإذا حللت المرأة عما يعالج به، فيجب أن تجلس في ماء طبخ فيه الملينات - وهو حار - وخصوصًا إن ظهر ورم. والأجود أن يستعمل عليها المراهم في قالب يمنع الانضمام. وأجود المجوف ذو الثقب ليخرج فيها الفضول والرياح، وإذا أصاب القاطع اللحم الطبيعي، فربما حدث سيلان بول لا يعالج»[٥٠].

لقد كان القدماء من الأطباء، منذ عهد إبقراط، على علم بموضوع اختناقات الرحم. وبالفعل تحدث مؤلف كتاب «في أمراض النساء»[٥١] عن انسداد الرحم الناجم عن التقرحات كما ناقش

(٥٠) المرجع المذكور: ١٦٨٠-١٦٨١.

(٥١) "Des maladies de la femme", Ed. Litter, vol. VIII, p. 97.

عدد من الأطباء اللاتين (موسيو، كلسيوس، ثيودور، برسكيانوس) هذا الموضوع. أما بالنسبة للعمليات المضادة لانسداد حلقات المهبل، فقد وصفها هؤلاء المؤلفون أنفسهم في شيء من التفصيل يفوق اهتمام ابن سينا. فكلسيوس، على سبيل المثال، ينصح بإجراء بتر على شكل صليب، وسورانوس - موسيو يتحدث عن ضيق حلقات الفرج التي يمزقها بالصنارات، كما أن هذا الأخير كان يعمل على شق انسداد عنق الرحم بواسطة المبضع وسكين النواصير. أما أداة السداد، التي كان يسميها ابن سينا «القالب»، فهي المعروفة عند اليونانيين تحت مسمى «Priapiscus» أي تحميلة، وكان كلسيوس يستعيض عنها بأنبوب من الرصاص. من ثم، نرى إلى أي مدى كان يستند ابن سينا إلى المصادر القديمة، الأمر الذي لا يدهشنا، إذ من المؤكد، وفقًا لما قدمناه، أنه لم يكن يألف العمليات الجراحية.

ثم يأتي الفصل الرابع المكرس لموضوع «انغلاق الرحم» (الانغلاق المؤقت)، وهو لا يتجاوز السطر الواحد، ويذكر فيه ابن سينا أسباب الأورام الصلبة التي تحدث بالرحم.

فصل في نتوء الرحم وخروجها وانقلابها وهو العفل

يشغل هذا الموضوع كلًّا من الفصلين الخامس والسادس من هذا القسم؛ وفيه يرد ابن سينا أسباب نتوء أو تدلي الرحم إلى جهد مبذول كالصراخ والكُحة أو العطاس وأحيانًا إلى ذعر شديد أو صدمة، وأيضًا إلى ارتخاء في أربطة الرحم إثر إصابة أو ضربة بالبطن، أو إثر ولادة متعسرة، خاصةً إذا كان المولود ثقيلًا أو حدث عنف من القابلة أثناء إخراجه، كما يُدين أيضًا الرطوبات الضارة أو العفنة المرخية للأربطة.

وتظهر آثار النتوء عند المرأة في صورة آلام حادة في العانة والمعدة والقَطَن والظهر؛ وقد تسبب الحمى أيضًا. هذا بالإضافة إلى الإمساك وحصر البول والتقلصات والرعشة والفزع بلا سبب. كما تشعر المرأة في بداية النتوء بثقل في الفرج؛ وقد ينزل الرحم إلى وضعه الطبيعي أو منقلبًا.

ويوصي ابن سينا، في علاجه، بالحقن المطهرة والمدرة للبول، كما ينصح بإعادة الرحم إلى وضعه بواسطة سدادة من الصوف، تعقبها صوفة أخرى مبللة بنبيذ قابض وبعصار أقاقيا، ثم صوفة ثالثة مشربة بماء وخل، بحيث يملأ ذلك الفرج كله. وعلى المرأة، بعد ذلك، أن تضطجع على جنبها ضامّة

ساقيها لمدة ثلاثة أيام تجدد بعدها السدّادات. ثم توضع المحاجم إلى أسفل بطنها، وتُشمم الروائح الطيبة، وذلك بغرض رفع الحرم إلى فوق. وتختلف مدة العلاج وفقًا لخطورة الحالة.

لقد كان أطباء اليونان على علم، منذ عهد إبقراط، بسقوط الرحم، وحتى بانقلابه التام. إلا أننا لم نجد لديهم وصفًا تفصيليًّا إلى هذه الدرجة لإعادة الرحم إلى وضعه. ومع ذلك يظل هذا العلاج، الذي يحبذه ابن سينا، مُسكِّنًا أكثر منه شافيًا.

فصل في ميلان الرحم واعوجاجها

يتحدث ابن سينا عن هذا الموضوع في الفصلين الثامن والتاسع؛ حيث يعرفنا أن ميلان الرحم قد يحدث في كل الاتجاهات، الأمر الذي يترتب عليه انحراف فتحة الرحم عن موضعها الطبيعي، واستحالة امتصاص الرحم، من ثم، لمنيّ الرجل. ويرجع ابن سينا أسباب الانحراف إلى جانب إلى تصلب أو ارتخاء الأربطة، وإلى تقلص أو ارتخاء العضلات، أو إلى اكتظاظ الأوعية الدموية للحوض أو إلى غلظ ولزوجة الأخلاط التي تجذب الرحم إلى جانب. هذا بالإضافة إلى «اختناق الرحم» (وهو المصطلح الفني الذي يدل، في الوقت نفسه، على الهستريا). وغالبًا ما يتم التشخيص هنا بواسطة إصبع القابلة التي عليها، في الوقت نفسه، تحديد أسباب الاعوجاج إما لصلابة وإما لتمدد الأنسجة المحيطة بالرحم.

ويبدأ العلاج بفصد العرق الصافن من جهة ميلان الرحم ثم يجب، بعد ذلك، الاعتماد على ملاحظات القابلة لتنويع العلاج بين الحمولات والفرزجات الطبية والمليّنات والحقن بدهن البلسان أو القرنفل. كما على القابلة أن تقوم بعمليات تمريخ (تدليك) بالشحوم، وأن تحاول بواسطة بعض الحركات إرجاع الرحم إلى وضعه الطبيعي.

لقد قام أطباء اليونان بوضع جدول بالغ التنوع لانحرافات الرحم. إلا أنهم أضافوا إليه هذا التصور الغريب عن ارتحال الرحم داخل الجسم كله. ولقد غاب هذا التصور، لحسن الحظ، عند ابن سينا الذي لم يُعنَ إلا بمعالجة الآفات التي لاحظتها القابلات.

فصل في الورم الحار في الرحم (التهابات الرحم ومحيط الرحم)

يدور حديث ابن سينا، فيما بين الفصلين العاشر والثالث عشر، عن «الأورام الحارة والبلغمية» في الرحم، وهو يرد أسبابها إلى بعض الحوادث كالسقوط، وإلى كثرة الجماع والإجهاض المتكرر، وإلى إصابات محتمَلة تكون قد أحدثتها القابلة عند الولادة، أو إلى احتباس الطمث، أو إلى «رياح» في الرحم. وقد تصيب الالتهابات عنق الرحم أو جسمه، بل وكل محيطه، وهو ما نسميه اليوم «Paramétrite».

ومن بين الأعراض التي يشير إليها ابن سينا، علامات تعرض للجسم كله، بدءًا من الصداع وحتى أوجاع مفاصل القدمين. ولعله من نافلة القول الإفادة بأن أهم هذه الأعراض هي: آلام الكلى والظهر والعانة، والإمساك، واحتباس البول، والحُمى، والرعشة. أضف إلى ذلك أن النبض يصغر ويضعف، كما أن اللسان يميل إلى الاسوداد، وقد تتعرض المريضة لفقدان الصوت والتشنج والغشيان. ويرى ابن سينا أن ورم عنق الرحم يسهل تشخيصه عن طريق اللمس؛ أما ورم جسم الرحم فلا يمكن التعرف عليه إلا عن طريق ميلانه في الاتجاه المعاكس. هذا بالإضافة إلى أن المريضة تعاني صعوبةً في المشي وقد تعرج أحيانًا، وكذلك لا تقدر على الرقاد على ظهرها أو على الوقوف. أما الانتفاخات البلغمية، فتكثر معها الأورام المائية وتؤدي أحيانًا إلى داء الاستسقاء. أما تشخيص الدُّبَيْلة، أو ورم محيط الرحم، فيعرف عن طريق شدة الآلام والحمى والأوجاع العامة؛ وفي حال كثرة التبرز وحسن إخراج البول، فإن المريضة تشعر ببعض الراحة.

وبالنسبة للعلاج فهو بالغ التنوع، إذ يبدأ ابن سينا في الفصل الثاني عشر بالإشارة إلى ضرورة فصد عرقي الصافن والباسليق، واتباع حِمْية تقوم على تقليل الغذاء. كما ينصح برفع رجلي المريضة إلى فوق وهي مضطجعة، وباستخدام المسهلات الخفيفة والنوم في مكان ذكي الرائحة. ويشير إلى استخدام الضمادات الموضعية المخلوطة بالزيوت والمياه المعطرة والحاوية منها على طبيخ الخشخاش وشحوم الطير كالأوز والحيوانات كالأيل، بل وكل الأقربازين النباتية للعصور الوسطى، أما بالنسبة لأورام محيط الرحم (الدُّبَيْلة) فيجب انضاجها بالضمادات الحارة وشقها حينما توجد بعنق الرحم. وإذا كان الورم غائرًا، فإن استئصاله يصبح خطرًا. لذلك، يُفضل الانتظار حتى يجد هذا الورم لنفسه مسلكًا عبر الأنسجة، وقد ينفجر أحيانًا هذا الورم في المثانة. وفي هذه الحال،

يجب تنقيته بواسطة مدرّاتٍ للبول مثل بزر البطيخ المسحوق في مواد صمغية، وفي حالات أخرى، يمكن التوصل إلى شق الرحم بواسطة ضمادات متخذة من الخردل والطين المختوم وغير ذلك. وفي حال تكوُّن القروح، تتم معالجة هذه بالأدوية المطهرة والمساعدة على الاندمال. وغالبًا ما تُستخدم في تليين الدُّمل ضمادات متخذة من الحلبة ودقيق الشعير وبزر الكتان ومواد أخرى.

إن نظرية أورام الرحم ومحيطه كانت بالغة التطور في الطب اليوناني. غير أن وصف ابن سينا كان ينصبُّ بخاصة على الأورام الناجمة عن التسمم المرتبطة بحُمّى النفاس، وإن كان يصعب علينا أن نتعرف على وضعه هذا على آثارٍ لمرض السيلان.

أورام الرحم

يعالج الفصلان الرابع عشر والخامس عشر موضوع «الورم الصلب في الرحم». ويبدأ وصف ابن سينا على النحو التالي: «يدل على الورم الصلب، إدراكه باللمس، وأن يكون هناك عسر من خروج البول والثفل، أو أحدهما. وأما الوجع فيقل عروضه معها ما لم يصر سرطانًا، وإن كان شيئًا خفيًّا، وينحف معه البدن، ويضعف، وخصوصًا الساقين، وترُمُّ القدمان، وتهزل الساقان. وربما عظم البطن، وعرضت حالة كحالة الاستسقاء، خصوصًا إذا كانت الصلابة فاشية. وربما عرض منها الاستسقاء بالحقيقة، فإذا لم ينحلّ الصلابة أسرعت إلى السرطانية. وعلامته، أن الورم الصلب سرطان، أو صار سرطانيًّا. أما إذا كان بحيث يظهر للحِسّ فأن يُرى ورم صلب غير مستوي الشكل، غير متفرع عنه كالدوالي يؤلمه اللمس شديدًا، رويء اللون عكره إلى حمرة كحمرة الدردي. وربما ضرب إلى الرصاصية، والخضرة»[٥٢]. ثم يقوم ابن سينا بوصف الآلام المصاحبة للسرطان، والتي يمكنها الانتشار من العانة والكلى حتى الرأس ومحاجر العينين مصحوبة ببرودة الأطراف وعرق غزير بارد. ويصحبها في بعض الأحيان التهاب صديدي (الفلغموني)، يقول ابن سينا: «وإن كان متقرحًا، ظهر قيح غير مستوٍ له وسخ، ويكون الوسخ في الأكثر رديء اللون أسود، وربما كان أحمر وأخضر، وفي النادر أبيض، وتسيل منه رطوبات حريفة، ومدة وصديد بادٍ إلى الخضرة منتن. وربما سال دم صرف لما يصحب ذلك من التآكل، حتى يظن أن ذلك حيض

(٥٢) المرجع المذكور: ١٦٨٥.

وكلما سال شيء سكنت به الحمى، وسكن الوجع، وقد تصحبه علامات الورم الحار، ولا علاج له بتةً»[٥٣].

وبالنسبة للعلاج، لا ينصح ابن سينا بأية جراحة، وإنما يوصي فقط بالعديد من الأدوية كالمراهم التي توصف بالمطهرة، أو كما نقول اليوم، المضادة للتلوث. ومن بينها زيت الحناء والأقحوان والنرجس والخروع والبابونج والشحوم الحيوانية والأصماغ كصمغ المقل والإيرسا. ثم يكرس، بعد ذلك فصلًا كاملًا لإعداد المراهم المضادة للأورام الصلبة.

إن وصف ابن سينا لسرطان الرحم يبدو غامضًا بعض الشيء، ولكن وصفه لأعراضه لا يدع مجالًا للشك في طبيعته. ولا يَفْضُله أطباء اليونان في ذلك، فهم لم يجروا أي جراحة للأورام السرطانية، ولم يقوموا حتى بعمليات كحتٍ لها.

فصل في اختناق الرحم (الهستريا)

إن المصطلح العربي للدلالة على «الهستريا»، هو اختناق الرحم، ويدل هذا الاسم وحده على التبعية المطلقة لنظرية الهستريا عند العرب لنظيرتها في الطب اليوناني. ونحن إذا تتبعنا العرض التاريخي الذي قدمه ديبجن Diepgen[٥٤]، فسوف نرى أن المصطلح اليوناني śviπeixn ετσύ يعني اختناق الرحم، وقد ترجم إلى اللاتينية بعبارة Praefocatio أو Suffocation. ولعله من الغريب أن يبدأ تاريخ الهستريا مع فيلسوفين من فلاسفة اليونان؛ مع إمبدوقليس الذي رأى ميتة في الظاهر قد تم إنعاشها بعلاج «اختناق رحمها»، وأفلاطون الذي يعد أول من تحدث في مقطع مشهور من محاورة طيماوس (ص٤٤) عن «رحلة الرحم»، الذي يستطيع بصعوده في جسم المرأة أن يتسبب في قطع أنفاسها وإصابتها بنوبات من الاختناق. لقد أحدث هذا المقطع تأثيرًا عميقًا في نظريات الهستريا عند اليونان منذ المدرسة الإبقراطية وحتى الفترة الهلينستية والبيزنطية. وقد وصف هؤلاء الأطباء كثيرًا من أعراض هذه الآفة الغريبة، إلا أن جالينوس العظيم هو أول من حاول تصنيف الأشكال المختلفة للهستريا وفقًا لخطورة هذه الأعراض. وتعد الهستريا، بالنسبة

(٥٣) المرجع المذكور: ١٦٨٥.
(٥٤) مرجع سبق ذكره في البداية.

لجالينوس، مرضًا خطيرًا يتطلب تشخيصًا متحفظًا، ويُصيب بخاصة الأرامل والنساء العفيفات. وليس من شك في أنه كان يحدث هنا نوع من الخلط بين الهستريا والصرع.

ونحن إذا التفتنا إلى الفصل السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فسوف نجد لدى ابن سينا بعض الاختلافات الهامة التي تميزه عن نظرية الطب اليوناني، فهو يبدأ كلامه على النحو التالي: «هذه علة شبيهة بالصرع والغشيّ، ويكون مبدؤها من الرحم، وتتأدى إلى مشاركة قوية من القلب والدماغ يتوسط الحجاب والشبكة[٥٥] والعروق الضاربة والساكنة. وقد قال بعض علماء الأطباء إنه لا يعرف سبب الاختناق، ولكن السبب فيه - إذا حصل - هو أن يعرض احتباس من الطمث، أو من المنيّ في المغتلمات، والمدركات أو الإدراك، والإبكار والأيامي، واستحالة ما يحتبس من ذلك إلى البرد في الأكثر»[٥٦].

ثم يقوم ابن سينا بتقديم عرض نظري بالغ الطول يشرح فيه كيف يستطيع الورم أو سوء المزاج سدّ فتحة الرحم والفتحات الدقيقة للأوعية الدموية بسبب التقلصات؛ إذ يساعد ذلك على صعود المواد الفاسدة نحو العضوين الرئيسين؛ القلب والدماغ، كما يشير إلى التشنج والغشيّ. غير أن احتباس الطمث يعد أقل ضررًا من احتباس المنيّ. ويعد اختناق الرحم مرضًا دوريًّا غالبًا ما يكثر وقوعه في فصل الخريف. والإصابة به نادرة في بعض الحالات، وتكاد تكون يومية في حالات أخرى، إلا أن الهستريا لا تُحدث إبان الولادة أية إصابات، إذ إن كل قوى الماخضة تتركز في أسفل البطن، ولا يوجد بها «بخار سُمّي» يصعد إلى القلب والرأس. ويمكن للإصابات الخطرة أن تبطل التنفس والحركة، إلى درجة يتطلب فيها الأمر وضع ندفة من الصوف المنقوش أمام الأنف للتأكد من بقاء المريضة على قيد الحياة. ويطلق ابن سينا على هذه الحالات، وفقًا لجالينوس، اسم الهستريا (الاختناق) من الدرجة الأولى، أما في حالة الدرجة الثانية، فإن التنفس لا يتوقف كلية، ولكنه يضعف ويخف؛ وفي حالة الدرجة الثالثة، يحدث تشنج وغشيّ، ولكن من غير فقدان للحس والإدراك.

(٥٥) يوضح المستشرق أن شبكة المخ هي غشاء افتراضي يعتقد القدماء بوجوده في قاع الجمجمة.
(٥٦) المرجع المذكور: ١٦٨٦.

وفي الفصل السابع عشر [العلامات] يقدم لنا ابن سينا الوصف التالي لأعراض الهستريا: «إذا قرب دور هذه العلة، عرض ربو، وعسر نفسي، وخفقان، وصداع، وخبث نفس وضعف رأي، وبهتة وكسل، وضعف في الساقين، وصفرة لون، وتغيره مع قلة ثبات على حالة. وربما حدث من عفونة النجاء الحاد عطش، فإذا ازداد فيها حدث سبات، أو اختلاط، واحمرّ الوجه والعين والشفة، وشخصت العينان، وربما تغمضتا فلم تنفتحا، وضعف النفس جدًّا، ثم انقطع في الأكثر، وتتوهم المريضة كأن شيئًا يرتفع من عانتها، ويعرض تحريق الأسنان وقعقعتها، وحركات غير إرادية، لفساد العضل وتغير حالها، وينقطع الكلام، ويعسر فهم ما يقال، ثم يعرض - لا سيما من المنويّ منه[٥٧] - غشيّ وانقطاع صوت، وانجذاب من الساق إلى فوق، وتظهر على البدن نداوة غير عامة بل يسيرة، وربما انحلّ إلى قيء بلغمي صرف، وصداع، ووجع ركبة وظهر، وإلى قراقر، وإلى قذف رطوبة من الرحم، وربما أدت إلى ذات الرئة، وإلى الخناق. وأورام الرقبة والصدر والنبض يكون أولًا فيه متمددًا متشنجًا متفاوتًا، ثم يتواتر من غير نظام وخصوصًا عند سقوط القوة وقرب الموت، ويكون البول مثل غسالة اللحم..»[٥٨]. ثم يناقش ابن سينا، في شيء من الاستفاضة، الفرق بين الاختناق المنوي وبين الاختناق (الهستريا) الحيض، فيضيف: «وأما الفرق بينه وبين الصرع - وإن تشابها في كثير من الأحكام، وفي العروض دفعة - فقد يفرق بينه وبين الصرع احتباس ما يصعد من الرحم والعانة، وأن العقل لا يفقد جدًّا ودائمًا بل في أحوال شدته جدًّا. وإذا قامت المختنقة حدث بأكثر ما كان بها إلا أن يكون أمرًا عظيمًا متفاقمًا، والزبد لا يسيل سيلانه في الصرع الصعب الدماغي، فإن سال سكنت العلة في المكان، ولا يحتاج إلى ما يفعل غيره»[٥٩]. ويشير ابن سينا، في نهاية الفصل، إلى الفرق بين الصرع والسكتة.

ويشغل علاج الهستريا عند ابن سينا فصلين مكتظين بالعديد من الوصفات التي تتراوح بين الفرزجات والحقن والحمولات وعمليات التبخير والتدليك. كما تشكل فيها عناصر الأدوية حشدًا هائلًا يكاد يشمل الجزء الأكبر من الأقرباذين العربية الحافلة. على هذا النحو، يناط

(٥٧) يميز ابن سينا بين الاختناق المنوي والاختناق الطمثي، وفقًا للسائل المستبقي في الرحم.
(٥٨) المرجع المذكور: ١٦٨٧.
(٥٩) المرجع المذكور: ١٦٨٨.

بالمطهرات والمستفرغات ومدرّات الطمث وعمليات الفصد استخراج الأخلاط الفاسدة من جسم المختنقة. كما نعثر على أدوية الطب القديم مثل أبارج روفس (Rufus) وتيادريطوس (Théodoréte)، وأدوية الطب السرياني مثل السجزنيا والدحمرتا اللذين نجهل مكوناتهما. ولقد وجدنا وصفة غير مذكورة في الطب اليوناني، وهي تتلخص في إدخال القابلة لمزيج من دهن السوسن والناردين والغار بفرج المصابة، ثم العمل على محاكاة حركة الجماع حتى يحدث لديها نوع من اللذة المصحوبة بالألم. وقذف لمنيّ بارد، بحيث يتم بعدهما الشفاء. ولعل ما يدهشنا بالرغم من كل هذا الحشد من الأدوية، غياب أكثرها شهرة في علاج الهستريا بأوروبا القديمة وحتى الحديثة، وهو صمغ الحلتيت (Assa-foetida)، الذي كان معروفًا، بالرغم من ذلك، عند العرب والفرس. وينصح ابن سينا، في حالات الهيجان، بفرك رأس المختنقة بالدهن العطر، مثل دهن الناردين أو البان، وإدخال الحمولات الحاوية على أدوية ملطفة ومحولة في فرجها أو شرجها. ويضيف إلى ذلك استخدام العطور القوية والمقيئات والمعطسات وعمليات التبخير وتدليك القدمين. وإذا لم تساعد كل هذه المعالجات على إفاقة المصابة، فإن ابن سينا ينصح بصب الدهن الحار على رأسها أو كيّ يافوخها أو فصدها، إلا أنه ينهي نهيًا تامًّا عن احتسائها النبيذ أو إكثارها من اللحم في الغذاء.

نلاحظ، في هذه الفصول، أن ابن سينا قد تبنى بعض النظريات اليونانية، خاصة ما يُنسب منها إلى جالينوس. إلا أنه يقدم لنا تشخيصًا بالغ الثراء، وهو تشخيص يستند جزئيًّا، من غير شك، إلى ملاحظاته الإكلينيكية الخاصة. كما يتميز ابن سينا بإغفاله الإشارة إلى فكرة «رحلة الرحم» في الجسم، التي لا يؤمن بها، ولا يعدها سببًا من أسباب الهستريا. غير أنه يبقى، مع ذلك، أن جالينوس وبعض أطباء العصور القديمة من ذوي الخبرة في مجال التشريح لم يجدوا في هذه الظاهرة أي نوع من الإعجاز.

الأجسام المسمارية في تجويف الرحم

نعني بهذا العنوان الإصابات التي أشار إليها ابن سينا في الفصول الواقعة بين الفصل العشرين والرابع والعشرين تحت عنوان «في البواسير والتوت والبثور التي تظهر في الرحم والمسامير»، وهو يضم إليها أيضًا أورام الرحم المسمارية (Pédiculés)[٦٠]، ويصفها على النحو التالي: قد تحدث في الرحم بواسير، ويحدث فيها كالتوت [ورم حليمي] مثل ما قيل في الذكر، وقد تظهر عليها بثور مختلفة يقال لبعضها الحاشا [السعتر] لأنها تشبه رءوس الحاشا (Thymus capitatus) وربما كانت بيضاء، وقد تظهر عليها بواسير كالثآليل المسمارية عقيب الشقاق، وعقيب الأورام الصلبة، وإنما يمكن أن يبرأ من البواسير ما يكون في الظاهر خارج الرحم، وقلما يبرأ الكائن في العمق. وقد تنتفع التي يحتبس طمثها بظهور البواسير في مقعدتها، وظاهر رحمها، لأنها ترجو أن تنفتح وتستنقي، ويكون بها أمان من الأمراض الصعبة التي يوجبها احتباس الطمث. وقد يمكن أن تُستلاح البواسير[٦١] ونحوها في المرأة المقابل بها الفرج على نحو ما ذكرناه في باب الشقاق[٦٢]. ويفضل «استفراغ» البواسير وقت احتباس الطمث، الأمر الذي يخفف الألم ويُحدث سيلانًا أشبه بثفل النبيذ.

أما بالنسبة للعلاج، فيوصي ابن سينا بجراحة بواسير الرحم على شاكلة بواسير المقعدة، وذلك بتناولها بالصنانير وقطعها. أما الجراح فتعالج بالأدوية القابضة الموقفة للنزيف مثل الزاج والشبّ وقشور الكندر. ثم تُدخل في غرفة باردة وتُرفع رجلاها وتُغسل أعضاؤها بمياه قابضة. وإذا كانت البواسير عريضة فلا تُقطع وإنما يتم تضييقها بواسطة المجففات كمسحوق الأقاقيا والحضض. وفي نهاية هذا الفصل نفسه، يقدم لنا ابن سينا وصفات أخرى للبواسير المتبقية بعد هذا العلاج، إذ ينصحنا بمعالجة «المسامير» عن طريق الحمامات والفرزجات المتخذة من الصمغيات كالراتينج والنطرون.

(٦٠) الأورام ذات السويق.

(٦١) لقد تُرجم فعل «استلاح» الذي يعني «تبصر وتأمل» بمعنى «فرّغ»، وهو ما انعكس على بقية الجملة. وهذه هي جملة ابن سينا: «وإذا استُليحت بالمرأة لم يخلُ، إما أن تستلاح في وقت الوجع – وهو وقت احتباس الدم منها – فتُرى حمراء متصلبة، وإما في وقت السكون فتُرى ضامرة، وذلك عند سيلان ما يسيل منها من شيء أسود كالدردي». المرجع المذكور: ١٦٩١.

(٦٢) المرجع المذكور: ١٦٩٠-١٦٩١.

يحمل الفصلان الثالث والعشرون والرابع والعشرون هذا العنوان: «في اللحم الزائد وطول البظر وظهور شيء كالقضيب، والشيء المسمى قرقس». ويصف ابن سينا هذه الزوائد اللحمية (Polypes) البارزة من فتحة الرحم، وخاصة زائدة بعينها كبيرة الحجم تشبه قضيب الذكر، كان يسميها اليونان «القرقس»، وهي تكوين مماثل لذيل الحيوان (Kerkos)، كما يصف تضخم البظر. ويقول ابن سينا إن بعض الأطباء مثل أرخنجانس Archigène وجالينوس قد لاحظوا أن هذه الأورام ذات الزوائد تطول في الصيف وتضيق في الشتاء، وهو ما أنكره الطبيب الفيلسوف أنبا دقليس.

وليس هناك علاج لهذه الأورام إلا البتر بعد ربطها بخيط أو بدون ربطها، ثم تلي ذلك إجراءات وقف النزيف. ويكتفي في الحالات التي يُخشى فيها النزيف الشديد بربط أصل الورم المتنخر. أما في حالات القرقس فتستخدم الأدوية القابضة حتى يتم تآكل الورم تدريجيًّا.

وقد تناول حديث ابن سينا، في هذه الفصول، كل الأورام الصغيرة التي تنبت بالمنطقة التناسلية، إذ إن مصطلح الرحم لديه كما لدى اليونان، يدل على الرحم نفسه بقدر ما يدل على المهبل أو الفرج، من ثم علينا أن ننظر إلى «البواسير» على أنها زوائد لحمية صغيرة تُدمى بسهولة في المهبل أو في فتحة الرحم، وإلى البثور والثآليل على أنها ضروب من البوليب (Polypes) الصغير، وإلى «التوت» أنها ثآليل (Papillomes) الفرج. أما الشكل المسمى «حاشا» (سعتر) فيحتمل أن يكون ثؤلولًا حُليميًّا (Papillaire). وليس من شك في أن ابن سينا يقتفي هنا، بوجه خاص، سورانوس في الأجزاء المفقودة من كتابه، الذي كان على الأرجح في حوزة العرب والمتاح لنا عبر نص Muscio اللاتيني.

فصل في الماء الحاصل في الرحم (استسقاء الرحم)

كان اليونان، منذ إبقراط وحتى سورانوس، يعنون بهذا المسمى «الاستسقاء الافتراضي للرحم». ويعالج ابن سينا هذا الموضوع فيقول فيه «عن الماء المجتمع في الرحم» ما يلي: «علاماته أن يتقدم احتباس الطمث، وتكثر القرقرة في البطن، وخصوصًا عند الحركة والمشي، ويعرض في أسفل

البطن ورم رخو، وربما صارت كالمستسقية، ويكثر سيلان الرطوبة المائية، وربما توهم أن بها حبلًا، وربما كان فرجها في أن يدرّ عنها ماء كثير دفعة في ضمادة»[٦٣].

ويتلخص العلاج، الذي يحبذه ابن سينا، في استعمال الفصد والحمامات والشيافات ومدرات البول والماء والطمث.

ولقد استعار ابن سينا هذا الفصل الأقرب إلى البناء النظري من أطباء اليونان نظرًا لإفاضتهم فيه. وهم ينسبون إلى هذه الآفة أضرارًا جمة، كما يشيرون أحيانًا إلى أعراض لها أشبه بأعراض الهستريا.

فصل في النفخة في الرحم

يصف لنا ابن سينا، تحت هذا العنوان، ضروبًا من التكوينات الغازية أو «الرياح» التي تحدث في تجويف الرحم. وهو يرد أسبابها إلى تعفن مخاط الرحم، أو إلى تقرحات بداخله. ويشير إلى ذلك في الفصول الواقعة ما بين الفصل الثامن والعشرين والفصل الحادي والثلاثين، أي الفصول الأخيرة من المقالة الرابعة ومن الفن المكرس لأمراض النساء، كما يميز ابن سينا بين النفخة وبين رياح الرحم، ويحدد لها أسبابًا تختلف عن أسباب إبقراط وجالينوس وسورانوس. وهو يقول في هذا الشأن: «ربما كان السبب الأول في حدوث النفخة والريح في الرحم ضربة أو سقطة، ونحو ذلك، فيضعف مزاجها، وربما كان عسر الولادة، أو انقلاب فم الرحم، أو شدة غلبة برد سادٍّ لفم الرحم، حاقنٍ فيه الرياح في فضائه، أو في خلل ليفه، أو في زواياه. وما كان في الخلل، فهو أصعب، ثم ما كان في الزوايا، ثم ما كان في التجويف»[٦٤].

إن الأعراض، التي يحددها ابن سينا، غائمة، إذ إنها لا تتجاوز بوجه خاص، الآلام التي تحدث في العانة والأربية وتنتشر بين الفخذين أو الإحساس بالتوتر في الرحم. وهو يشير، بالإضافة إلى ذلك، إلى صوت أشبه بصوت الطبل يحدث في المعدة أو أسفل الحجاب الحاجز، وهو ما قد يسبب

(٦٣) المرجع المذكور: ١٦٩٢.
(٦٤) المرجع المذكور: ١٦٩٣.

الإصابة بنوع من «الاستسقاء الطبلي». وغالبًا ما يصاحب هذه الحالة الأخيرة مغص وضربان وتحس بالبطن. ويرى ابن سينا أن هذه الآلام الطبلية في الرحم والمعدة قد تستمر طوال الحياة، ثم يضيف: «ويزعمون أن اشتمال الرحم على المنيّ يحل هذه الريح كأن لم تكن»[٦٥].

ويوصي ابن سينا باستخدام أدوية قديمة كاللوغاذية والسجزنيا واسم هذا الدواء الأخير سرياني. كما يوصي بالمطهرات وأرياج أركيغانس (Archigène) وبالشيافات الملطفة وبالتدليك بزيوت متخذة من بذور النباتات. كما ينصح، أيضًا، بوضع محاجم على الفرج والعانة وأسفل البطن. إلا أنه لا يوصي بأي علاج لرياح الرحم.

(٦٥) المرجع المذكور: ١٦٩٣.

الخاتمة

لقد قمنا بمراجعة موسوعة المعارف الخاصة بأمراض النساء والولادة التي ألّفها ابن سينا في حوالي العام الألف من التقويم المسيحي. وتمثل هذه الموسوعة، بصدق وأمانة، مجمل معارف عصره؛ وهي معارف – كما نرى – هائلة. وإذا تبيّنا كل ما يتعرض له طبيب النساء في العالم الإسلامي من عقبات جسيمة لم تختفِ كلية إلا خلال القرن التاسع عشر، فلن نتوانى عن إظهار إعجابنا بما بذله المؤلف العربي – الفارسي من جهد في سبيل جمع هذا القدر الهائل من الملاحظات.

كما يجدر بنا ألا ننسى أن طبيب الحقبة الإسلامية لم تُتَح له إمكاينة تشريح الجثث أو الحيوانات الحية مثل ما كان بمقدور جالينوس في روما، أو فحص النساء عن طريق اللمس أو إجراء عمليات لهن، إذْ كان ذلك موقوفًا على القابلات فقط. بل وكان أقصى ما هو متاح له الملاحظة عن طريق جس البطن وتبين وجود الأورام الكبيرة أو الوضع التقريبي للجنين. لقد لاحظنا أن ابن سينا، مثله في ذلك مثل كل أطباء العصر الإسلامي، قد استعار كثيرًا من معارفه عن اليونان الذين كانوا يتمتعون بقدر أكبر من الحرية في الفحص والممارسة مقارنةً بالعرب الذين كانت تخضع المرأة لديهم، منذ بداية الإسلام، للمحظورات الدينية. ومع ذلك، فلقد شخّص ابن سينا كثيرًا من الظواهر التي لم نقع عليها في مؤلفات اليونانيين التي وصلت إلينا. بل، وزد على ذلك، أنه قد استطاع ملاحظة مجموعة من الحقائق التي لم يطرأ عليها أي تغيير حتى يومنا هذا.

نشير أيضًا إلى حقيقة أخرى جديرة بأن نشيد بها، ألا وهي تحرر ابن سينا من كل خرافات عصره، إذْ لم نجد لديه أي ذكر للتعاويذ أو للإشارات الفلكية والكيميائية التي تغص بها أعمال سابقيه وتابعيه.

ملحق اللوحات

الشكل (١): منمنمة فارسية على مرآة - مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، (مهداة من جلالة الملك فؤاد الأول للمتحف).

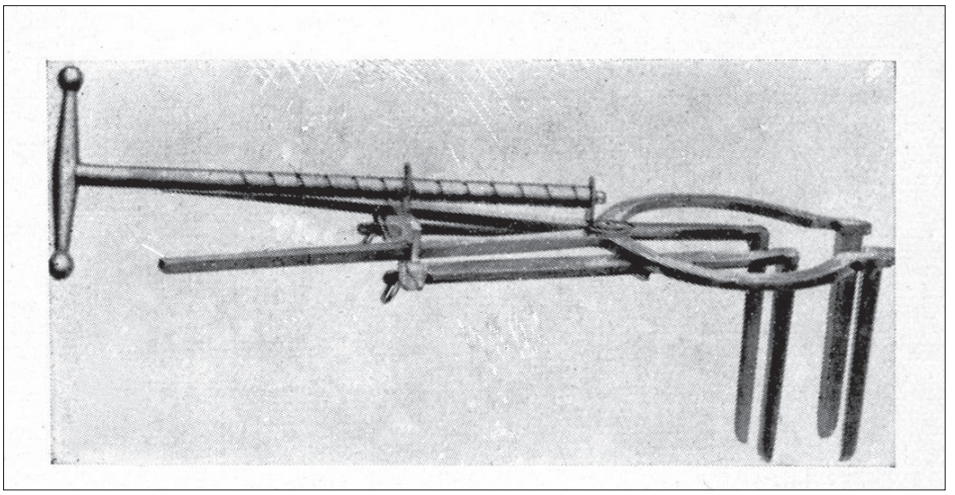

الشكل (٢): مرآة نسائية طبية من العصر الروماني، متحف نابولي الوطني.

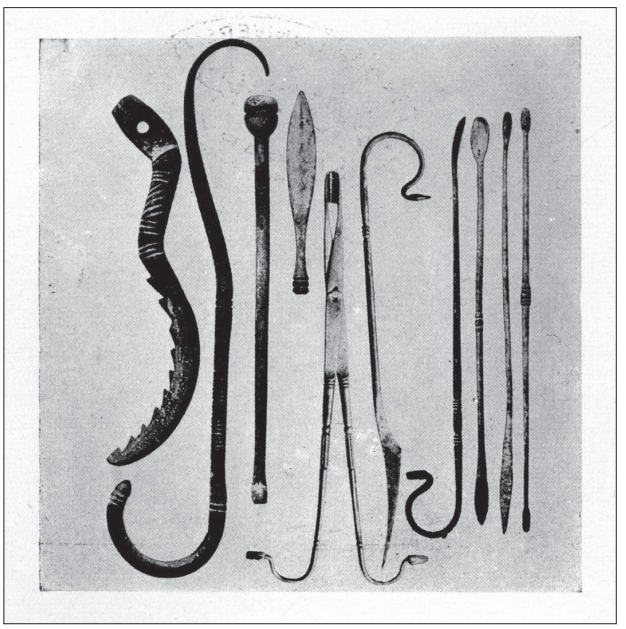

الشكل (٣): أدوات للولادة وطب النساء من العصر الروماني، (مجموعة مايـر- شتاينج).

الشكل (٤): عملية شق قيصيرة مصورة في مخطوط عربي من عام ١٣٠٧م،
(من مجموعة إدوارد ج. براون، كامبريدج ١٩٢٢).

المصطلحات الطبية وترجمتها

دُمل	Abcès
دُمل بمحيط الرحم	Abcès paramétritique
النفساء	Accouchée
عسر الولادة	Accouchement difficile
شبه اللفائفي	Allantoide
احتباس الطمث	Amenorrhea
السلي - الرهل	Amnios
شهوة الحوامل	Appétit des gravides
الشريان الحرقفي	Artère iliaque
الشريان السُّري	Artère ombilicale
انسداد فتحة الرحم	Atrésie
إجهاض - إسقاط	Avortement
قرقرة	Borborygmes
ثقب بوتال	Botal
سرطان	Cancer
كرسي الولادة	Chaise obstétricale
المشيمة - السلاء	Chorion
الحمل - الحبل	Conception
لقموم (ورم) حُليمي	Condylome papillaire
الحاوي في الطب	Continens Medicinae
حبال المنيّ	Cordons spermatiques
أجسام مسمارية	Corps pédiculés

مجموعة إبقراط	Corpus Hippocraticum
تآكل	Corrosion
زوائد	Cotylédons
مفتت الجمجمة	Cranioclaste
ثقب الجمجمة	Craniotrippie
صنّارات	Crochets
سقطة	Culbute
في تناسل الحيوان	De generatione animalium
في المنيّ	De Semine
في فن ممارسة التوليد	De Usu partuim
انحراف – ميل	Déviation
تشخيص	Diagnostic
آلام، أوجاع الرحم	Douleurs utérines
عسر الطمث	Dysménorrée
سيلان	Écoulement
تفتيت، تقطيع الجنين	Embryotomie
صرع	Épilepsie
مرض الحُمرة	Erysipèle
بتر	Excision
استخراج بالكُلّاب	Extraction au forceps
الرحا – الحمل الكاذب	Fausse gravidité
حُمى النفاس	Fièvre puerpérale
ناسور الرحم	Fistule de l’utérus
ناسور المثانة والرحم	Fistule vésico-utérine/vaginale

انتفاخ	Flatulence
سيلان	Fluor
استسقاء الرأس	Hydrocéphalie
كلابات – جفت	Forceps
الأكالة – غنفرينا	Gangrène
سيلان	Gonorrhée
حمل – حبل	Gravidité
انسداد الرحم	Gynatrésie
هيئة – مظهر – شكل	Habitus
نزف	Hémorragie
بواسير الرحم	Hémorragie utérine
قياس ثقل السوائل	Hydrométra
استسقاء	Hydropisie
غشاء البكارة	Hymen
اختناق الرحم – هستريا	Hystérie
غشاء شبكي	Membrane réticulaire
غزارة الحيض	Ménorragie
التهاب الرحم	Métrite
ارتحال الرحم	Migration de la matrice
المولى	Mola
شبق المرأة – إفريسيموس النساء	Nymphomanie
دمل بالقدم	Œdème des pieds
قلة الطمث	Oligoménorrhée
المبايض	Ovaires

بوق الرحم	Oviducte
خفقان القلب	Palpitations cardiaques
أورام حُليمية	Papillomes
بردية بروش الطبية	Papyrus médical de Brugsch
التهابات حول الرحم	Paramétrites
عجان	Périnée
التهاب الصفاق	Péritonite
الفَرْزَجَة	Pessaires
مشيمة	Placenta
تنفس - هوائي	Pneumatique
نفخة الرحم، رياح	Pneumatose utérine
سائل الرحم (سليلة)	Polypes de l’utérus
أورام مسمارية - ذات سويق	Polypes pédiculés
اختناق الرحم	Praefocatio matricis
حمولة - لبوس	Priapiscus
قسوح - إفريسيموس	Priapisme
تدلّي	Procidence
تدلّي	Prolapsus
حكة الفرج	Prurit vulvaire
بثور	Pustules
التدبير الملكي	Regalis disposition
تدبير المرأة المفتضة	Régime de la femme déflorée
غشاء المشيمة	Secondines (placenta)
مرآة طبية	Spéculum

عقم	Stérilité
اختناق الرحم	Suffocation matrice
الإخصاب المتعدد	Superfécondation
الإخصاب المتعدد	Superfétation
اندحاس - انضغاط القلب	Tamponnade
الخصية	Testicule
ترياق مثروذيطوس	Thériaque de Mithridate
ورم طبلي	Tympanisme
قروح	Ulcérations
مهبل	Vagin
أوعية المنيّ	Vaisseaux spermatiques
عروق السُّرة	Veines ombilicales
النفخة	Ventosité
برّوقة - زائدة لحمية	Verrue
ميلان، انقلاب الجنين	Version du fœtus
فرج	Vulve

المصطلحات اليونانية والشرقية

أكالة - غنفرينا	Akla
اللفائفي	Allantois
السلي	Amnios
السلي الرهل	Anfos
رباط، شريط للتعصيب	’asâbât

عنق الرحم	Awkhên (aixήv)
باذروجين	Bâdh-doroughîn
باسور	Bâsour
بيضة (مبيض)	Bayda
الشيخ الرئيس	Chaikb Wa-Raîs
تشقق - تمزقات	Chiqâq
نبات الشيرخشت	Chir-khouchl
الدحمرتا (سريانية)	Dahmorta
ذكر	Dhakar
جوارشن	Djawâtich
دُبَيْلة (ورم بمحيط الرحم)	Do beūla
فن (قسم)	Jann
فرج	Fardj
فرزجات	Forzadjât
كيس لفائفي يسيل به بول الجنين	Filas
في الرحا	Fi´r-raba
إفريسموس	Frîsîmous
طب النساء	Gynaikeia
حاشا (سعتر)	Hâchâ
حمل	Hame
حبوب فيكرا	Hiéra picra
اختناق الرحم	Hystérikî pnix

اختناق الرحم	Khtinag ar-reham
انغلاق – انسداد	Inghilâq
انقلاب	Inqilâdj
الكظ	Kaff
كلاليب	Kalâlîb
الكليتان	Kalbatân
كاتياس – مبضع	Katias
القرقس	Kerkos
كتاب الشفاء	Kitâb-al-Chifâ
الكتاب الملكي	Kitâb al-Malaki
الكتاب المنصوري	Kitâb al-Mansouri
الكتف	Kitf
لولب	Lawlab
التهاب الصلبة	Logadia
فن الولادة	Maiotikón
مقالة	Maqâla
مأزق	Mâ´zim
مبضع	Mibda’
مرآة	Mirârat
مولى	Mylé
المستفرغ	Al-mustafrigh